ابراهيم عبد المجيد

رواية

قبل أن أنسى أني كنت هنا

بيت الياسمين للنشر والتوزيع

قبل أن أنسى أني كنت هنا..

إبراهيم عبد المجيد

رواية

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثاني شقة 3
53 ش خيرت - ميدان لاظوغلي عابدين
جمهورية مصر العربية

البريد الالكتروني:
ziadibrahim_2008@yahoo.com
ziadibrahim1979@gmail.com
Baitelyasmin@yahoo.com
Baitelyasmin@gmail.com

تليفون:-
(+202) 27949885
(+2) 011100 94 62 5
(+2) 010166 85 58 3

اسم الكتاب:
قبل أن أنسى أني كنت هنا..رواية
المؤلف: إبراهيم عبد المجيد
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
21699/2017
الترقيم الدولي:
978-977-817-117-4
حقوق الطبع محفوظة.
الطبعة الأولى 2017.
تصحيح: محمد هشام

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

كل ما يرد داخل هذا الكتاب من آراء أو أفكار هو مسؤولية الكاتب وحده، ولا يعبر بالضرورة عن التوجهات والسياسة التحريرية للدار.

قبل أن أنسى أني كنت هنا..

"ليت لي قلبا يتحمل الألم، فعندئذ كنت أركن إليه... فتعالَ إذن يا قلبي أتكلم إليك ولتُجِبني عن كلامي، ولتفسِّر لي ما هو كائن في الأرض".

من حديث "خِع خِبر رَع سُنِب"

كاهن من كهنة عين شمس في العصور القديمة

- 1 -

لماذا وقفت تحت النخلة الوحيدة في الطريق؟ كل ما جرى أني سمعت دقات الموبايل في جيبي فوقفت أرد على من هاتَفَني. كنت أعرف أني في الشارع وحدي. لقد تجاوز الوقت منتصف الليل. في هذه البلاد لا يسهر الناس. لا بد من أن نجوان هي التي تطلبني لتطمئن علىّ. لقد نسيت حقا أنْ أخبرها بسلامة وصولي إلى سوهاج. شغلني الشباب الذين انتظروني على محطة القطار بالترحاب والأحاديث. لم يكن لدىّ الوقت الكافي لأتذكر أي شيء ، غير أن أضع حقيبتي الصغيرة في الغرفة المحجوزة لي في الفندق، وأنزل إليهم ليصحبوني إلى قصر الثقافة لأتحدث عن ديواني الشعري الجديد "حديث الأماكن". كنت أعرف أنهم بعد الندوة لن يتركوني وحيدا. سيصحبني القليل منهم إلى مقهى ليكون الحوار أكثر عفوية، وليسعدوا بالسهر معي. أنا أيضا كنت في حاجة إلى ذلك.

كانت "نادين" هي التي تطلبني بالموبايل. عرفتها من صوتها. ابتسمتُ. لقد سألتني ضاحكة: "لماذا حقا لم تطمئنا على وصولك؟ مؤكد شَغَلَتكَ بنات الصعيد". وكانت لا تزال تضحك.

قلت لها إني بخير، وإني لم يكن لدىّ الوقت لأحدثها. وكانت نقط مثل الندى تسقط علىّ من أعلى النخلة الوحيدة التي وقفت تحتها صدفة.

انتهت المكالمة. وقفت أشعر أن عينىّ اتسعتا إلى آخرهما. من التي كانت تحدثني حقا؟ نادين ماتت. مضت ست سنوات تقريبا على موتها.

عدت أنظر إلى شاشة الموبايل بسرعة أتأكد ممن حدثتني. وجدت رقما دون اسم. لكنه صوت نادين لا أنساه. كانت نقط الندى لا تزال تتساقط على رأسي. رفعت عينىّ إلى أعلى النخلة. من أين يأتي الندى ونحن لم نصل إلى ساعة الفجر بعد. كانت النقط قليلة لكنها لا تزال تنزل. لو ظللت رافعا وجهي سيمتلئ

بالماء. ربما أمطرت وأنا في الندوة. لكن كيف تمطر في أغسطس؟ كيف والحرارة حولي لا تنكسر؟ كيف والشوارع التي مشيت فيها كانت خالية من كل أثر للمطر؟ ثم كيف تبادلت الحديث مع نادين ولم أنتبه لموتها إلا بعد أن انتهت المكالمة؟

سمعت صوتا مثل طرقعات من الأرض. نظرت إلى أسفل. الطرقعات تأتي من حول جذر النخلة في دائرة كبيرة قطرها أكثر من مترين. الطرقعات خفيفة حقا لكني أسمعها. على محيط الدائرة بدأت تخرج من تحت الأرض جذور رفيعة كانت خفية. الجذور التي تظهر تصبح أكثر سمكا. الجذور تجتهد لتخرج من تحت الأرض والطرقعات تزداد. أسرعت مبتعدا عن المكان. النخلة ستقع. ستخرج من جذورها. صرت أمشي أنظر خلفي إليها. هل ما أراه حقيقي؟

وصلت إلى نهاية الشارع فرأيت النخلة تنهار على الرصيف العريض. لقد سمعت، رغم بعد المسافة، طرقعتها الأخيرة وصوت سقوطها. أغمضت عينيّ لا أصدق. هل يمكن أن تقع نخلة وحدها؟ لا بد أنها شاخت جدا وضعفت الجذور عن أن تمسك بها في الأرض.

أخذت طريقي مسرعا إلى الفندق القريب الآن. حين تمددت فوق السرير تذكرت أني لم أتناول عشائي. لم أجد رغبة في الطعام. ثم إن هذا فندق صغير؛ لا أظن أن فيه خدمة للغرف بعد أن ينتصف الليل.

كنت قد خلعت ملابسي وارتديت بيجامتي. مددت يدي على مهل أمسك بالموبايل. من جديد أنظر في الرقم الذي طلبني في الطريق. أتأمله وأحاول أن أتذكر صاحبته أو صاحبه. لن أصل إلى شيء. الأفضل أن أطلب أنا صاحب الرقم وأسأله لماذا فعل بي ذلك؟ أجل. لا بد أن شريرة ما هي التي تقمصت صوت نادين. لا يمكن أن تكون زوجتي نجوان. تذكرت الآن أني حدثتها بالفعل فور وصولي، وأنا أقف على رصيف المحطة، ومن ثم لن تتصل بي. ثم إنها تعرف قصة حبي لنادين، وهي التي هوّنت عليّ الألم

بعد وفاتها. لقد مات حبيبها طارق أيضا يوم موت نادين. جمعنا الألم بعد أن كانت تجمعنا الصداقة. زوجتي نجوان لا يمكن أن تفعل هذا بي. إننا نتحدث عن طارق ونادين معا وندعو لهما بالرحمة، ولا تظهر الغيرة على وجه أي منا. هل يغار أحد من الموتى؟ يا إلهي. لقد قرأت شيئا عن ذلك. بل رأيت فيلما تقتل فيه الزوجة التي بلغت السبعين زوجها الأكبر منها؛ حين حدثها يوما بأنه كان يحب فتاة غيرها قبل أن يلتقى بها، وهو في العشرين من عمره! لا أذكر اسم الفيلم. هل رأت نجوان الفيلم؟ لا أظن. أنا حتى لم أحدثها عنه. لا يمكن أن تفعل نجوان هذا أبدا. لقد استطعنا الرضا بالقدر. بل واعتبر كل منا الآخر هدية السماء للصبر على الفراق القاتل، وصارت لدينا طفلة جميلة عمرها عامان الآن هي "نهاوند". لقد ماتت نادين على صدري ومات طارق على صدر نجوان. يا إلهي. لا أريد أن أتذكر ذلك اليوم الآن.

من جديد حدَّقت في الرقم. إنه رقم نادين! أجل. لم أستطع أن أتماسك. مِلتُ على السرير أضع وجهي في الوسادة. لقد وصل الرقم إلى غيرها عن طريق شركة الاتصالات. هذا أمر طبيعي بعد أن ينقطع صاحب الرقم عن استعماله كل هذه السنوات. لكن لماذا تتصل صاحبة الرقم الجديد بي؟ وكيف تعرف أني كنت أحب نادين فتقلد صوتها؟ ولماذا تفعل بي ذلك؟ وهل كانت تعرف نادين حقا؟ ثم هل لهذا علاقة بما جرى للشجرة؟

قمت بسرعة دون أن أقرر ذلك وارتديت ملابسي. أخذت طريقي مسرعا إلي الشجرة. رأيتها ملقاة على الأرض، لكني رأيت فروعها التي لم تأتِ تحتها، لا تزال تنزل منها قطرات الندى! لقد صارت على الأرض حولها بقعة كبيرة من الماء الخفيف. وضعت يدي على جبهتي وقد أغمضت عينيّ. الأفضل أن أعود إلى الفندق من جديد. لا معنى لما أفعله ولن أصل إلى شيء. لكن سيارة شرطة صغيرة كانت تجري في الشارع الخالي توقفت أمامي. نزل منها ضابط شاب ينظر إلى الشجرة ويقول:

- أخيرا وقَعَت الشجرة الملعونة!

نظرت إليه مندهشا. قلت:

- لا بد أنها شجرة عجوز.

- ربما، لكنها كانت مسحورة. بعد أن ينتصف الليل كل ليلة يسمع منها الناس صوت بكاء. هل ترى هذه المياه حولها؟

- إنه ندى.

- لا ليس ندى. إنها دموع. من أين أنت؟

- من القاهرة.

- وما الذي جاء بك إلي سوهاج؟

كنت أفكر في حديث الضابط العجيب عن الدموع لكني أجبت:

- أنا شاعر واسمي نور قنديل، وجئت لندوة في قصر الثقافة.

ابتسم الضابط وقال:

- نور وقنديل! أهلا بك يا أستاذ نور. لكن ألم يحدثك أحد عن هذه الشجرة؟

- لم يحدثني أحد. كنت أمر من أمامها فرأيتها تخرج من جذورها.

- لقد ارتحنا منها. الناس كانت فاكرة أنه مدفون تحتها وليٌّ من أولياء الله تبكي عليه، وفيه ناس قدمت طلب للمحافظة ليبنوا حولها جامع. الناس خرّفت. الحمد لله وقعت. وشك حلو علينا. تصبح على نور يا أستاذ قنديل!

تركني الضابط الشاب وركب سيارته التي قادها به جندي مبتعدا. مشيت أنا أفكر في كلام الضابط، ولم أجد نفسي قادرا على الفهم، فأخذت طريقي إلى الفندق ورحت أتذكر الشباب الذين استقبلوني، والذين قضيت بينهم السهرة بعد الندوة. لقد ضحكنا كثيرا في جلستنا بالمقهى. أسعدوني حقيقة أنا الذي أصابني كثير من اليأس فكنت أرفض أيّ مشاركة في ندوة، أو حديث صحفي أو تليفزيوني، حالة مما يسمي "قفلة الكاتب". لقد وافقت على

الـذهاب إلـى سـوهاج لأنـي بعـدها سـأسافر إلـى الأقصـر ألقـي محاضرة أخرى، وأُسمعهم شعري وأعقد لقاء آخر في اليوم التالي أسمع فيه شعرهم. لقد طال الزمن حقا بيني وبين القدوم إلى الأقصر. كنت هناك آخر مرة منذ عشر سنوات. شجعني الشباب أن أخرج من عزلتي ولو مرة. هم أهل الجنوب المنسي، كما يقولون وكما هي الحقيقة. من يدخل في عزلة بإرادته تحتويه دون أن يدري ولا تتركه. عليّ أن أتملص من هذه العزلة قبل أن أنسى وتصبح هي حياتي. وكنت طلبت من الشباب بعد جلسة المقهى أن يتركوني أعود وحدي، فالفندق ليس بعيدا وأنا أعرف الطريق. لم أكن أعرف أني سأرى شجرة حزينة!

لا بد من أنْ أنسى ما حدث. أنسى حتى المكالمة التي استقبلتها وأنام. أجل. لن أطلب الرقم الذي خاطبني. من حدثني بصوت حبيبتي نادين لن يرد على مكالمتي. هذه ليلة امتلأت بالخرافة أو بقوة سحرية لن أقدر على حل شفراتها.

لم أشعر بالطريق الطويل في القطار حين ركبته في الصباح. انشغلت عنه بمتابعة فيسبوك وتويتر من هاتفي النقَّال. لا أخبار جديدة. القبض على عصابة تتاجر في الأعضاء البشرية. القبض على تاجر يبيع أطعمة فاسدة. القبض على عدد من ضباط الشرطة يتعاونون مع تاجر مخدرات. رئيس الجمهورية يشترك في سباق بالدراجات مع طلاب المدرسة العسكرية. الحكم بالمؤبد على خمسة وعشرين طالبا بتهمة التعاطف مع الإرهاب. ارتفاع كبير في سعر الدولار. مجلس الشعب يوافق على ضريبة جديدة على المبيعات. القبض على عشرة شبان يقفون يحملون لافتات مكتوب عليها "لِسَّاها ثورة يناير".

توقفت أنظر إلي الخبر. نحن في أغسطس. غاب الخبر عن عينيَّ وغاب إحساسي بالموبايل. لقد حاولت أكثر من مرة أن أجذب نادين إلى الوراء. لكنها دائما كانت تصل إلى مقدمة الحشود فوق كوبري أكتوبر. جاءتها طلقة الرصاص القاتلة. "نادين". صرختُ وأسمع صوتها الآن. "اتركني يا نور. لا تشغل نفسك بي". كانت آخر كلماتها أنفاسا متقطعة. "لقد رأيت نفسي في حلم أمس أموت هنا على هذا الكوبري". كانت تبتسم وأنا أصرخ "نادين". واقترب طارق مني يحملها معي، لكن طلقة أصابت طارق فسقط جوارها. ظهرت نجوان صارخة وصار كل منا يحمل حبيبه على صدره ونحن ممددين على الأرض، والحشود تتعثر بنا وتتجاوزنا. فجأة زادت هرولة الحشود وارتفع الصوت يملأ الفضاء. الله أكبر. الله أكبر. هُوووووووووووووووووو . وينزاح عني وعن من حولي دخان القنابل. الشرطة هربت. هربت. هربت. ما هي إلا دقائق وصرت أنا فقط مع نجوان كل منا يضم حبيبه إلى صدره. دموعي على وجهي أحس بها الآن، ودموع نجوان ملأت صدرها. انقطع صوت طلقات الرصاص كلها وقنابل الدخان، وبدأ المساء يقترب، وصوت الحشود في ميدان التحرير يصل إلينا كراية نصر ترتفع وتشق الظلام. لكن لا بد من استدعاء عربة الإسعاف. لقد ماتت نادين يا نجوان. ومات طارق يا نور. تبكى نجوان وتتحسر

4%

على سوء الحظ. لا توجد شبكة تليفونات. نظرت حولي إلى الليل القادم على مهل، ودخان القنابل الأبيض الذي لا يزال يملأ الفضاء البعيد. لا أحد يعود إلينا. لكن سيارة ملاكي اقتربت منا فجأة. كيف لسيارة تمشي فوق الكوبري الآن! توقفت السيارة. نزل منها شاب يسألنا:

- هل تحتاجان إلي مساعدة؟

- ننقل نادين وطارق إلى مستشفى الجلاء القريب من هنا.

- سأحاول معكما، وإن كنت أظن أن النزول من فوق الكوبري سيجعلني أتوقف بالسيارة. شارع رمسيس الآن ممتلئ بالحشود القادمة إلى الميدان.

قالت نجوان وهي تبكي:

- إذن نظل فوق الكوبري وننقلهما إلى المستشفى القبطي. لا أظن أن هناك حشودا قادمة بعد ميدان رمسيس.

ظللت شهورا طويلة أصعد إلى كوبري أكتوبر، وأمشي حتى أصل إلى مكان موت نادين وطارق. أقف أنظر إلى الأرض أبحث عن بقع الدم القديمة. ذات مرة فكرت: هل يمكن أن تظهر من الأرض شجرة هنا بين الإسفلت، في مكان موت نادين وطارق؟

أدرك أن عينيّ تتسعان الآن وأنا أتذكر كم تمنيت ذلك. وأنا أتذكر جمال وجه نادين وعينيها العسليتين الواسعتين اللتين توسعان الدنيا حولي. لقد نسيت أمنيتي الآن بعد أنْ بدأت حياة جديدة مع نجوان، وإن لم أنسَ وجه نادين. لم أعد أصعد إلى الكوبري مشيا ولا أتوقف مكان موت نادين وطارق. نادين في الأصل من سوهاج يا نور. كيف نسيت ذلك؟ هذه الشجرة لا بد تعرفها. أجل.

ارتبكت في مكاني فوق مقعدي، وتلفَّتُ كمن سينهض من مقعده في القطار ويتركه. لكن هل يمكن أن أعود؟ ها هو القطار يتوقف في محطة الأقصر. ثلاث ساعات تقريبا حتى أدركت سِرّ الشجرة الباكية. يمكن جدا أنْ يحدث هذا. لم لا؟ طالما سمعت حكايات

أمي وأبي عن الأشجار التي تذبل بعد موت أصحابها. ليس مهما أن تكون نادين صاحبة الشجرة. ولن تكون هي صاحبتها. لكن من يدري ربما وقفت تحتها مرة أو أكثر. ربما كانت مع زميلاتها في المدرسة الإبتدائية يلعبن أو يأكلن تحتها. ليس أمامي إلا أن أفكر هكذا حتى أتقبَّل ما جرى. لقد سمعت صوت نادين وبدأت الشجرة تخرج من جذورها. ربما سمعت الشجرة الصوت معي فذهبت إليه. ربما وقفت نادين تحتها مرة وحدثتها بقصة حبنا فعرفتني الشجرة. قلت لنفسي: "صرت عابدا وزاهدا يا نور. الشعراء أقرب الناس إلي الله رغم ما يبدو من إلحادهم! الشعراء يؤمنون بأن الكون يسمع ويرى!".

أخرجني من أفكاري ثلاثة من الشباب ينتظرونني. ابتسموا في سعادة برؤيتي، وصحبوني في سيارة أحدهم إلى فندق "وينتر بالاس" الملكي القديم. قالوا لي: "نتركك لتستريح الآن، ونلقاك في المساء في قصر الثقافة لنقيم الندوة، وفي الصباح تذهب إلي البر الغربي تزور الآثار، ثم نستفيد بوجودك لندوة أخرى غدا في بيت الشعر، تسمع فيها الشعراء وتعلق على أشعارهم". قلت: "أحتاج بعد الندوة أن أسهر معكم الليلة في المدينة. لا تتركوني وحدي".

لم أمكث في الفندق غير دقائق . أخذت طريقي إلى معبد الأقصر. لم أخبرهم ولم أطلب منهم أن ينتظروني. لقد قبلت الدعوة لأقف ولو قليلا بين وجوه الأجداد الذين طال شوقي إليهم. قلت لنفسي: الآن أزور معبد الأقصر، وقبل أن يهبط الليل أزور معبد الكرنك، وغدا أزور البر الغربي في الصباح الباكر، كما قالوا، قبل أن تشتد الحرارة. بعد غد أعود إلى القاهرة.

تحت الحرارة الشديدة صعب أن أمشي. لقد كان جنونا أن آتي في الصيف. أخذت عربة حنطور من أمام الفندق. المسافة ليست بعيدة. لكن ركوب الحنطور طقس لزوار الأقصر أعرفه من زيارتي القديمة. لم أنتظر أن يكون هناك سُيَّاح بالمعبد. ففضلا عن حرارة الجو، السياحة في وضع صعب في مصر بعد أحداث الإرهاب التى لا تنتهى. الفندق الأثرى الجميل كان شبه خال، فما بالك

137 دقيقة متبقية ... 6%

بالفنادق الأخرى.

قطعت تذكرة دخول المعبد المقررة للمصريين بعشرة جنيهات وأنا أبتسم، ودخلت. رأيت ثلاث صينيات صغيرات الجسم، على رؤوسهن قبعات ملونة تقي من حرارة الشمس، ومعهن فتاة مصرية واضح لي أنها دليل السياح، تحدثهم باللغة الصينية، ولا أحد آخر في المعبد. لم أكن في حاجة لمن يرشدني إلي ما أمامي. أدركت أني لم أطلب من الشباب أن يصحبني أحد منهم على دراية بالآثار، ليس لكي أكون وحدي فقط بين الأجداد، ولكن لأني سأبكي. وبالفعل قاومت دموعي وأنا أقف بين الأعمدة القديمة الصامدة في الزمن ونقوشها، وأنظر إلي التماثيل، وإلى المسلة الباقية من المسلتين اللتين بناهما رمسيس الثاني. الأخرى تزين ميدان الكونكورد، في باريس التي ذهبت إليها مرة فوجدت نفسي أسرع في الذهاب إلى الميدان لأطل عليها.

فكرت لحظات في عظمة أجدادنا. هذا المعبد الذي أقامه أمنحوتب الثالث عام 1400 قبل الميلاد ليكون لعبادة آمون رع، الذي نسب نفسه إليه ليرضَى له المصريون بحكم البلاد، هو الذي كانت أمه غير مصرية. وأضاف إليه رمسيس الثاني الفناء والمسلتين وصروحا للعبادة، وسجل انتصاراته على الحيثيين وغيرهم على جدرانه. من يصدق أن كل مسلة من الاثنتين وزنها يصل تقريبا إلى مئتين وخمسين طنا، وقُطِعَت قطعة واحدة من الجرانيت الوردي من جبال أسوان، ثم نقلت إلى هنا كما هي؟ سألت نفسي السؤال القديم: لو لم يكن هناك فنانون أقاموا هذا المعبد وغيره، هل كنا سنعرف شيئا عن حكّام ذلك الزمان؟ من في بلادنا من الحكّام يعرف قيمة الفنون والآداب؟ لكن لم يكن ذلك سبب جيشان صدري ورغبة دموعي أن تنطلق. لقد فكرت فجأة: ماذا يحدث لو تركت الآثار بلادنا وذهبت هي أيضا إلى السماء؟ كل ما بقي من آثار الفراعنة كان مقصودا به الخلود. المسلة التي ترتفع إلى السماء هي إشارة إلى رحلة الصعود إلى العالم الآخر. بالضبط كما هي الأهرامات التي كانت مقبرة للفرعون، تنطلق منها روحه أسرع إلى السماء حيث عرش الله.

هذه التماثيل الضخمة للفراعين تعلن قوة البقاء في الفضاء الواسع. فهل يرضى عنا أجدادنا اليوم؟ أم سيتركوننا مثلما تركتنا شجرة سوهاج؟

ابتعدت عن هذا التفكير. رحت أمشي متبتلا بين الأعمدة والرسوم الباقية والتماثيل. في طريق خروجي وجدت من يجلس في ظل غرفة الحراسة، وأمامه بعض الكتيبات القليلة عن الآثار، فضلا عن ورق البردي. لا أعرف لماذا كان موجودا حقا ولا يوجد سُيَّاح. أكيد ليس له عمل آخر. لم أكن في حاجة إلى شراء شيء من ذلك. لقد أتيت لأقف محاولا أنْ أشم رائحة المكان، وأن تتسرَّب إلى روحي عظمته ولا شيء آخر. لا أريد أنْ أعرف أكثر مما أعرف. أريد أنْ أشعر أنَّ لي وطنا عظيما لم يقدر على محوه أحد، حتى لو كان ثمن ذلك هو دموعي.

خرجت ولمحت مقهى قريبا على الناحية الأخرى من الشارع الطويل. شارع معبد الكرنك. جذبني اسم المقهى فاتجهت إليه. مقهى وادي الملوك. الجالسون على الرصيف في هذا الحر لا أحد! رغم وجود سقيفة تمنحهم الظل. الجالسون داخلها اثنان. جلست وتقدم مني الجرسون الشاب. طلبت فنجانا من القهوة. كنت أشعر بعرق كثير تَفَصَّد على جسمي. أمامي طريق الكباش يمشي يمينا، لكن الجزء الذي أمامي خال من الكباش تقريبا. سألت الجرسون الشاب وهو يضع فنجان القهوة، هل يبتعد معبد الكرنك عن هنا كثيرا؟ قال لي إنّ معبد الكرنك ليس بعيدا، ويمكن بالتاكسي أو بالحنطور أنْ أذهب في دقائق. ثم أردف:

- لكن الجو حار وستمشي مسافة من خارج المعبد في الفضاء حتى تدخله.

ابتسمت وقلت:

- سأسرع في المشي.

قال:

- يمكن أن تشترى قبعة تحميك من الشمس من هنا - وأشار إلى

محلات قريبة- أو من هناك على أبواب المعبد. المحلات مفتوحة رغم أنه لا يدخلها أحد.

ذهبت إلى معبد الكرنك. اشتريت من أحد المحلات في مدخله برنيطة جميلة.

لم أجد في المعبد غير الصينيات الثلاث اللاتي رأيتهن في معبد الأقصر. درت بسرعة بين الأعمدة. تنقلت بين المداخل المختلفة. توقفت طويلا أمام طريق الكباش. لم أفكر أن أتذكر أي معلومات أعرفها من قبل. تركت نفسي كما فعلت في معبد الأقصر، أتشبَّع من مظاهر العظمة للمصريين أجدادي الذين أقاموا هذه المعابد للآلهة، ينتصرون بها على الدنيا حولهم والزمن بعدهم. ووقفت دقائق أمام التمثال الصغير للجعران المقدس أنظر إلى البحيرة المقدسة التي تكاد تجف من الإهمال. فجأة حاصرني من جديد هاجس أن كل ذلك يمكن أن يرتفع إلى السماء، تاركا الأرض الظالمة لظالميها يبابا.

في المساء جاءني الشباب الثلاثة الذين قابلوني بالمحطة، ليأخذوني إلى الندوة. كانوا ثلاثة من كتّاب المدينة الشباب الأصغر سنا مني، أنا الذي في الخامسة والثلاثين. تماما كشباب سوهاج. لم يكن أي منهم قد أصدر ديوانا أو رواية بعد، وأنا أصدرت ديوانين قبل ديواني الأخير.

في الندوة عرفت كم يحبون شِعري، ولا يتوقف الحاضرون عن سؤالي عن بعض القصائد. كنت أجيبهم وأحدثهم عن تجربتي مع الشعر والشعراء والقراءة والكتابة. ثم حدثتهم عن زيارتي إلي الأقصر منذ عشر سنوات، وكيف توقفت مذهولا أمام الأعمدة والتماثيل والمسلات. كيف رأيت الآثار المرسومة في مقابر البر الغربي كأنها رُسمت اليوم، قبل وصولي، وليس منذ آلاف السنين. انتقل الحديث إلى الآثار التي يجدها الناس أحيانا تحت بيوتهم، وعن التجارة في الآثار. أسمع منهم وأعرف أن في الأمر كثيرا من المبالغة، لكن فيه كثيرا من الحقيقة أيضا.

كانت الندوة رائعة وحميمية إلى درجة عظيمة، انتهت في نحو

الساعة العاشرة. بعدها انتقلنا إلى مقهى. اقترحت عليهم مقهى وادي الملوك. ضحكوا: كيف عرفت المقهى؟ قلت لهم: لقد زرت معبد الأقصر اليوم وجلست فيه. رأيته بالصدفة فأعجبني رغم صغره. ذهبنا وجلسنا على الرصيف، لكني لا حظت رجلا يجلس وحيدا في الجزء الصغير الأعلى داخل المقهى.

كان يبدو في الخمسينات من عمره. يجلس بعيدا وحيدا لا يكلم أحدا. كان الرجل يرتدي جلبابا أبيض خفيفا، فهذا شهر لا يزور فيه الأقصر إلا الحرُّ! كان عرق يتفصد من جسمي رغم انخفاض درجة الحرارة بالليل، أنا الذي أرتدي القميص والبنطلون، فالمقهى غير مكيف. به بعض المراوح معلقة على الجدران بالداخل، لكن لا يكفي هواؤها ولا يصل إلينا. طال الوقت وتقدم الليل أكثر وقلَّ المارة. قلت لهم: "حان وقت العشاء. هيا بنا إلى أي مطعم تختارونه".

نهضوا ووجدت نفسي أنظر إلى الرجل الصامت نظرة أخيرة. الرجل لا يزال وحده. مشيت مع الشبان الثلاثة، وحين دخلنا إلى مطعم "أم هاشم" الذي اختاروه ثم جلسنا، قلت لهم:

- لقد لاحظت بالمقهى رجلا يجلس وحيدا شاردا طول الوقت ولا يكلم أحدا.

قال أحد الشباب:

- أجل. هو حسن العبودي.

- تعرفونه؟

قالوا معا:

- من في الأقصر لا يعرفه؟

- هل هو مشهور إلى هذا الحد؟ هل هو تاجر آثار مثلا أو يعمل بالسياحة التي توقفت وتعطل عمله؟

قال أحدهم:

- لا. هو تاجر بهارات. عطّار يعني. عنده الكركديه والدوم والفلفل الأسود والشطة وغيرها. هو من عائلة كانت تشتهر بتجارة التوابل على مرِّ التاريخ، لكنه منذ عامين تقريبا انقطع عن الحديث مع الناس ويجلس دائما وحده.

قال الثاني:

- مسكين. لا أحد يصدقه فتوقف عن الكلام.

سكتُّ أنظر إليهم مستريبا في الأمر. كان النادل يضع أمامنا الكباب والكفتة والأرز، وتصعد الرائحة الطيبة إلى أنفي وروحي.

قال الثالث:

- منذ عام تقريبا يمضي الليل في حديقة منزله. بيته من دورين. فيلا حديقتها في الخلف. يظل حتى الصباح وسط الحديقة. يقول إنه يسمع النخلة التي تتوسطها تئن من جذورها وتكاد تخرج من الأرض.

نظرت إليهم مندهشا وتساءلت وأنا شارد أفكر:

- معقول؟!

قال الأول:

- هذه هي المسألة التي حيرت الناس، لكن زوجته تؤكد كلامه وتقول إنها تسمعها معه. ثم أصبحت تخاف، وتطلب منه أن يبيعا البيت، وينتقلا إلى مكان آخر.

سكتُّ ولم أعلق. صرت أمضغ الطعام على مهل، لعل أحدهم يكمل القصة، وبالفعل قال الثاني:

- ابنته كانت في القاهرة في أثناء الثورة. لقد طلب منها يوم 25 يناير أن تعود، لكنها بقيت مع زميلاتها في المدينة الجامعية. قالت له إنها لم تجد حجزا في القطار إلا بعد أسبوع. الله يعلم إذا كانت صادقة أم كذبت عليه لتبقى وتشارك في الثورة. ماتت في شارع الشيخ ريحان في منتصف ليل الجمعة 28 يناير. أصابتها

طلقة رصاص، قالوا إنها جاءت من قناصة فوق وزارة الداخلية.

ظللت صامتا وصرت أمضغ الطعام على مهل. هل أحكي لهم حكاية الشجرة في سوهاج؟ ليس الآن. ثم هل سأصدق هذه الحكاية أيضا؟

وقال الثالث:

- يقول العبودي إن هذه النخلة التي تئن زرعتها ابنته.

صرتُ أنظر إليهم في دهشة وحيرة، وتوقفت عن الأكل، فقال الأول:

- الآن يقول العبودي إنه ينتظر أن تسقط الشجرة أو تطير تاركة الأرض، وتلتحق بابنته إيزيس في السماء. وهكذا يمضي وقته صامتا في انتظار هذا اليوم.

ساد صمت عميق بيننا توقفوا فيه جميعا عن الطعام ينظرون إليّ، ولا يدرون أني أفكر كيف أن اسم ابنة الرجل الصامت "إيزيس" إلهة الخلود التي جمعت أشلاء أوزوريس، ونفخت فيه من روحها فعاد إلى الحياة، وأنجبت منه حورس ينتقم له. لكن دخل "سايس" السيارات الواقفة أمام المحل هاتفا في رعب:

- شفتم ماذا حدث؟ لقد عاد حسن العبودي إلى البيت فطارت النخلة. لقد اتصلت به زوجته تصرخ. لقد رأت النخلة تهتز ولا توجد ريح، فأسرع إليها ورأى النخلة تنخلع من الأرض وتصعد إلى السماء. الناس كلها لا تصدق لكنها تجري لترى مكان الشجرة الفارغ. أحدهم أخبرني الآن أنه بالفعل لم تعد نخلة في حديقة بيت العبودي. يا رب الطف بعبادك.

ووقف الشبان الثلاثة يقولون في انفعال: "لا بد أن نذهب لنرى ذلك". وسألوني أن أذهب معهم، لكني قلت شاردا:

- سأعود إلى الفندق. لا بد من أن أنام.

كنت أشعر أني صرت خارج العالم، كما كنت أعرف أني لن أنام

أبدا.

فـي الفنـدق تمـددت فـوق السـرير. فكـرت أن أتـابع المحطـات الفضائية ربما أجد خبرا عن الشجرة التي طارت اليوم أو التي انخلعت أمس من جذورها. ربما أجد حوارا يؤكد لي ما رأيت أو سـمعت. لكنـي شـعرت أنـي صـرت أركب سفينة كبيرة في بحر الظلمات يرتفع وينخفض بها الموج بلا رحمة، وبوسايدون يقطع علىّ طريق النجاة. لقد غرق بحارة السفينة جميعا، وأنا وحدي مربوط في صاريها الكبير. أسمع أصوات "السيرينيات " وأمزق وثاقي حتى تخلصت منه، لكن كانت السيرينيات قد ابتعدت ولم يعد يغريني صوت بالقفز إلى ماء لا عودة منه. وحدي الآن أمسك بمقود السفينة، لكنها تدور حول نفسها من شدة الموج. يغمرني المـاء البـارد ووجـه بوسـايدون معلَّق فـي السـماء تحـت القمـر الشاحب، يضحك لي أو علىّ. لن ينقذني من خيالات قراءاتي القديمة إلا أن أعود إلى الحياة اليومية السريعة الإيقاع. أنا لست أوديسيوس، وإن كنت خرجت مع غيري منذ ست سنوات نبحث عن وطن. ولست "ياسون" وإن خرجت مع الملايين نبحث عن "الجزة الذهبية" عربون المُلك، ومع كل منا "ميديا" التي يحبها وتحبـه، تفتـح لـه الطـريق ولـن يخونـها أبـدا، ولـن تبـدي قوتـها الشريرة إلا على أعدائه. لقد غامرنا جميعا وسط البحار بحثا عن الجزيرة التي نجد بها الجزة الذهبية، ولما وجدناها كان رجال الحـاكم ينصـبون لنـا الفخـاخ فـي كـل طـريق. لـن يخـرجني من الهلوسة هذه غير أن أتابع صفحات فيسبوك. أمر كهذا لا بد من أن يكون قد طار بينها. بالفعل وجدت من كتب:

"يقول الناس في الأقصر الآن إن هناك شجرة انخلعت من الأرض وطارت في الفضاء، أمام صاحب البيت وزوجته وأولاده".

"أنا من الأقصر وصاحب البيت هو تاجر التوابل الشهير حسن العبودي. منذ عام صار صامتا ذاهلا لا يتحدث مع أحد، والناس لا تصدق ما يحكيه من أنه يسمع الشجرة تبكي كل يوم في المساء، ويحس بحركة تحت الأرض لجذورها كأنما تريد أن تنخلع منها.

الناس صارت تنظر إليه في شفقة. وهو يقول إن هذه الشجرة زرعتها ابنته وهي طفلة، إيزيس التي استشهدت برصاصة في شارع الشيخ ريحان من قناص على سطح وزارة الداخلية، وهو على يقين أن الشجرة تبكي على إبنته".

"أنا كنت أعرف إيزيس، وكنت أقف معها لحظة أصابتها الرصاصة. أنا من القاهرة. كنت أدرس مع إيزيس الموسيقى إلى جوار دراستنا في كلية الآداب بجامعة القاهرة. إيزيس كانت تعزف على الكمان. حاولنا أن نسعفها في المستشفى الميداني الذي كان قد أنشأه الشباب بسرعة خلف محل كنتاكي، بعد أن نزلنا إلى الميدان، لكنها ماتت وأنا وزملائي الشباب نحملها. إيزيس كانت حلوة أوي وصعيدية جدعة. كان يحبها حسام زميلنا من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. حسام كان حيموت علشانها وساب مصر بعد التخرج وعايش في فرنسا دلوقت، أنا مصدق إن الشجرة تزعل على إيزيس وتسيب الدنيا".

أمسكت نفسي عن أن أكتب عن نادين. حبيبتي التي انخلعت من أجلها الشجرة لا بد في سوهاج، رغم أنها لم تصعد إلى الفضاء. سيظل هذا سرا لا أقوله لأحد حتى أتيقن أكثر أن الأشجار تترك البلاد. فالذين ماتوا يوم جمعة الغضب وبعدها كثيرون جدا. "لو أن لكل واحد أو واحدة شجرة زرعها أو وقف تحتها، فلن تبقى في مصر خضرة، وربما تجف المياه".

راقت لي هذه الفكرة فكتبتها على صفحتي، وجاءت التعليقات:

"أعتقد أننا ما دمنا فشلنا في ثورتنا فسينتقم لنا القدر. أجل. نحن لم نفشل لأننا ضعفاء. لكن لأن المؤامرة التي كانت على الثورة أقوى منا وأكثر ذكاء".

"أوافق على هذا الكلام. هؤلاء الذين يحكموننا الآن جاءت بهم الثورة، ولولا الثورة لكانوا موظفين عموميين، لكنهم هم الذين سجنوا ويسجنون الشباب كل يوم، وهم الذين يوجهون الهجوم على الثورة التي يسمونها الآن نكسة يناير".

"ما دمتم تعتمدون على انتقام القدر، فلا تحدثوننا عن الثورة من جديد. ما يقال عن الشجرة التي طارت في الفضاء ليس إلا وهما ونوعا من النصب على الشعب. ما أكثر الثورات التي فشلت، لكن لم نسمع من قبل قط عن حزن الأشجار".

فكرت في عدم متابعة فيسبوك. لا أريد أن أسمع كلاما في السياسة الآن. لكني توقفت أمام تعليق يقول:

"أنا الآن في شارع محمد محمود. الشارع تقريبا خال من السيارات المارة. لكني رأيت رسومات الجرافيك التي مسحتها المحافظة كلها مرسومة على حائط الجامعة الأمريكية. نفس وجوه الشهداء القديمة. لقد اقتربت منها فلم أجد شيئا. ابتعدت إلى الرصيف الآخر فرأيتها تعود. لقد تأكدت من أن ما رأيته خيال أتمناه. أجل. أنا أحد الذين رسموا على الحائط صور الشهداء. يبدو أني أتمنى أن تعود الأيام ولا أدري. وأعتقد أن من قال بالشجرة الطائرة يحلم بعودة ابنته. يبدو أننا سنحلم كثيرا في الأيام المقبلة، أو لم يبقَ لنا إلا الأحلام".

بسرعة وجدت نفسي أرتدي ملابسي من جديد وأترك الفندق. رحت أمشي مسرعا في شوارع الأقصر التي صارت خالية ليس فيها إلا رائحة الجو الحار. إلى أين أمشي؟ وهل أعرف منزل حسن العبودي الذي نزلت مسرعا لأراه؟ لا بد من أني سأقابل شخصا في الطريق أسأله. لكني لم أقابل غير أمين شرطة يقف أمام البنك الأهلي. هل أسأله؟ تبادلنا النظر فظللت أمشي ولم أتوقف. من بار صغير رأيت أكثر من شاب أجنبي وفتاة يخرجون ضاحكين ويهرولون في الطرقات. إذن هناك غير من رأيتهم من السياح رغم الحر الشديد. عليّ أن أعود إلى الفندق. عليّ أن أتماسك وأفكر في جدوى ما أفعل، فلا معنى لاضطرابي. ولأعتبر كل ما أراه أو أسمعه حكايات من كتاب السحر الذي لا أعرف من فتحه الآن. أريد أن أتحدث كثيرا مع نجوان. أشتاق إلي أن أرى ابنتي نهاوند.

في الفندق تمددت من جديد فوق السرير. لم أشأ أن أتابع

الفيسبوك على الموبايل مرة أخرى. لا أعرف لماذا توقعت أن يدق الموبايل وأسمع صوت نادين من جديد. بالفعل دق الموبايل فاندهشت وفزعت جالسا فوق السرير. لكني رأيت رقم نجوان.

- مساء الخير يا حبيبي. سامحني. كنت عارفة أنك سهران. رأيت ما كتبته على صفحتك في فيسبوك وتعليقات الأصدقاء عليه، قلت أكلمك.

هل أحدثها عن شجرة سوهاج؟ فكرت ثم قلت:

- إزيك يا حبيبتي؟ وحشتيني.

- هل أنتَ بخير؟

- الحمد لله. أنا الآن في فندق وينتر بالاس الملكي القديم.

- هل رأيت أنت المنزل الذي طارت منه الشجرة؟

- لا. لكن كل الناس يتحدثون عن ذلك.

- طيب. أريد أن أخبرك بشيء غريب حدث معي اليوم في المساء. كنت لا أود أن أخبرك به، لكن أنا خائفة. زاد خوفي بعد أن قرأت عما حدث في الأقصر.

- لا تخافي من أي شيء.

- أرجوك لا تخَف أنتَ أيضا.

- تكلمي يا نجوان. أنا لا أخاف.

- طيب. سأبلع ريقي أولا. انتظر لحظة... لقد دق الموبايل اليوم. رقم لا أعرفه. قلت ربما تحدثني أنت من رقم أحد أصدقائك. ربما فعلت ذلك لأن موبايلك غير مشحون مثلا. أنت تعرف أني لا أرد على الأرقام التي لا أعرف أصحابها. سفرك هو ما جعلني أرد.

- ادخلي في الموضوع يا نجوان. أنا قلقت.

- حاضر. أنا خائفة. لكن سأتكلم. استجبت للرقم. قلت "آلو"

فجاءني صوت أشبه بصوت طارق يسألني عن أحوالي، ويقول لي إنه يعرف أني تزوجتك، وإنه سعيد بزواجنا، ثم انتهت المكالمة.

سكتُّ مندهشا حائرا لا أستطيع التعليق، لكنها قالت:

- بعد أن انتهت المكالمة حدَّقت في الرقم وتذكرته. إنه رقم طارق، وما سمعته هو صوته فعلا.

ظللت غير قادر على الكلام، فسألتني:

- لماذا لا تتحدث؟

تمالكت نفسي وقلت:

- حبيبتي، ما سمعتِه هو ما تتمنينه. أنتِ كثيرا ما قلتِ لي إنكِ حلمتِ بطارق يقول لك إنه سعيد بزواجِك بي.

- لكن ما سمعته حقيقة يا نور، وليس حلما.

- لا. هو حلم يقظة. صدقيني. طارق مات. استشهد. ورقم تليفونه أكيد باعته شركة الاتصالات لغيره.

- يعني أنا مجنونة؟

قالت ذلك وهي تبكي. فقلت:

- أرجوكِ يا نجوان لا تبكي. وصدقيني ما حدث هو حلم يقظة لا أكثر ولا أقل.

قالت وهي مستمرة في البكاء:

- طيب. هل يمكن أن تأتي غدا؟

- سأفعلها. سأخرج من هنا في الصباح إلى المطار. لن أزور البر الغربي ولن أركب القطار فأتأخر. المهم أن أجد طائرة، لأنه ربما لا تكون هناك طائرات كل يوم بسبب قلة السيَّاح.

- أرجوك يا نور لا تتأخر. أنا خائفة جدا.

ليس مقدرا لي البقاء في الأقصر. لا بد من أن أكون جوار نجوان الآن. لم أنم في الحقيقة.

في الصباح أخذت طريقي إلى المطار، بعد أن عرفت من الفندق موعد الطائرة. ضاع عليّ البقاء في الفندق الأثري الجميل، وضاعت عليّ زيارة مقابر الفراعنة في البر الغربي، لكن ما جرى يستحق العودة. نادين اتصلت بي وأنا أستطيع أن أتحمل اللغز، لكن اتصال طارق بنجوان أمر مرعب حقيقة لنجوان ذات القلب الطفولي. كم أتمني لو أسبق الطائرة في الطيران.

- 4 -

وصلت إلى مطار القاهرة في نحو العاشرة صباحا. كان اعتذاري عن عدم الاستمرار وإقامة ندوة أخرى في "بيت الشعر" أستمع فيها لقصائد الشعراء أمرا صعبا، لكنهم تفهموا ما قلت من أن زوجتي في حالة صحية حرجة. أحسست بدرجة الحرارة خارج المطار أقل منها في الأقصر. طبعا. اتساع المكان أمامي أعطاني شيئا من الراحة. مشيت إلى موقف التاكسيات. سآخذ طريقي إلى البيت مباشرة. قلت مبكرا لنجوان ألا تذهب إلى عملها اليوم. نجوان تعمل في مدرسة أطفال خاصة اسمها "مدرسة الأمل". أنا أعمل في جريدة "الأخبار" صحفيا في قسم الأدب. وصلت إلى بيتي في محطة التعاون في شارع مصر والسودان بحدائق القبة. ما إن دخلت من باب شقتنا حتى ألقت نجوان بنفسها في حضني تبكي قائلة:

- لو لم تأتِ ربما مت اليوم.

أحطتها بذراعي ومشيت بها إلى أقرب مقعد في الصالة. أجلستها وجلست جوارها ولا أزال أحيطها بذراعي.

- هل تصدقين ما سمعتيه في المكالمة إلى هذا الحد؟

- في البداية ظننت أنك أنت تمزح معي. لكن قلت وما الذي يُذَكِّرك بطارق الآن، وكيف لا تزال تعرف طبقات صوته؟ ثم إنك لم يحدث أن قلدت صوت أحد أمامي من قبل.

كدت أقول لها إن ما حدث معها حدث معي، وإنني أيضا فكرت أنها قلدت صوت نادين، لكني أرجأت ذلك حتى لا أزيد رعبها، وسألتها:

- أين نهاوند؟

- نائمة.

فكرت قليلا وسألتها:

- هل تناولتِ فطورك؟

أجابت:

- لا. ولا العشاء أمس.

سكتُّ لحظات ثم وقفتُ أقول:

- ما رأيك أن نفطر معا الآن؟ لم تكن لدى شهية للإفطار في فندق وينتر بالاس الملكي الجميل! لم أستطع التأخر عليكِ.

- سأجهز لك إفطارا.

قلت:

- أريد بعد الإفطار أن نذهب معا إلى "وسط البلد".

نظرت إليّ مندهشة، فقلت:

- هناك قد نجد حلا للمسألة.

بدت غير قادرة على الفهم، فقلت لها:

- أنتِ لستِ من رواد موقع تويتر. أنا كما تعلمين من رواده. وجدت تغريدة لصديقنا حامد شحاتة يقول فيها إن مكالمة جاءته في وسط الليل، فرد عليها فوجد من يحدثه هو صديقه جابر نبوي. جابر نبوي كما تعرفين استشهد يوم 28 يناير أيضا.

نظرت إليّ في رعب، فقلت:

- لا تخافي. حامد يقول إنه يشعر بمن يدير هذه المسألة من مكان خفي، لأن أكثر من صديق وصديقة يعرفهم جاءتهم مكالمات من هذا النوع.

قالت في تردد:

- إذهب أنت. أنا خائفة. أو اتصل بحامد واعرف منه الحقيقة. يمكن بيهزر.

- يا نجوان يا حبيبتي اسمعي كلامي. اعتبري ما حدث ظاهرة تستحق الفرجة والبحث كأنها لم تحدث لكِ.

قالت:

- طيب. اتصل به وتأكد من وجوده في مكتبه بدار النشر اليوم.

- إذن أعدي الإفطار وسأتصل أنا.

تناولنا الإفطار بسرعة لاحظت خلالها أنها تقريبا لا تأكل! غيرت لنهاوند الصغيرة ملابسها وخرجنا. ركبنا تاكسي واتجهنا إلى "وسط البلد" حيث ينتظرنا حامد في دار نشر " فُل وورد ". لم يكن الطريق سهلا. زحام شديد على كوبري أكتوبر بسبب تعطل إحدي السيارات. السائق في حالة ضيق شديد يسب ويلعن في أصحاب السيارات القديمة. ثم قال:

- كنت أريد ألا أعمل اليوم. زوجتي هي التي شجعتني على الخروج. قالت لي تحدَّث مع أكبر عدد من الركاب، ربما تجد أحدهم يعرف من أين نشتري سكرا.

ضحكتُ وابتسمت نجوان. سألتُ السائق:

- إلى هذا الحد لا يوجد سكر في البلاد؟

- لا يوجد إلا ملح يا أستاذ. هذا البلد خرب تماما. حضرتك عندك سكر.

- عندنا كيلوجرام تقريبا. استهلاكنا منه بسيط.

- طيب انتظر بعد أن ينفد الكيلوجرام وشوف حتلاقيه فين!

قلتُ:

- إن شاء الله ستجد السكر. لا تضايق نفسك.

- أنا متضايق من البلد كله. لا أحد قلبه على الشعب المسكين.

استطردت في الحديث علّني أبتعد به عما تفكر فيه نجوان،

فقلت:

- لكن السكر ليس كل شيء.

قال السائق بنفاد صبر:

- ماذا جرى يا أستاذ. أنت لا تعيش معنا! هل أحدثك عن أسعار كل شيء الآن؟

ضحكت وقلت:

- لا داعي. أنا أعرف. أردت أن أسليك عن تعب الطريق فقط.

سكت السائق لحظات ثم قال:

- أنا كنت منذ نصف ساعة في منطقة "الزاوية الحمرا" قبل أن آتي إلى حدائق القبة. مكان لا أحب أن أذهب إليه لكن هذا ما حدث. وجدت زحاما في أحد الشوارع الضيقة. هذا أمر عادي في هذا الحي، لكنا وجدنا ناسا، تقريبا مجانين، يتحدثون عن أصوات يسمعونها بالليل من شجرة وحيدة في الشارع. أصوات بكاء. أي والله.

نظرت إلى نجوان لكني بسرعة ابتعدت بعينيّ عنها، فقالت هي في دهشة:

- هذا الكلام قيل بالليل أمس على صفحات فيسبوك، عن شجرة انخلعت في سوهاج وأخرى طارت في الأقصر.

قلت في نفسي إذن هناك من كتب على فيسبوك عن شجرة سوهاج. كيف لم أنتبه؟ وقال السائق:

- هذا ما قاله أيضا أحد الشبان للناس. كان هناك من السكان من يريد خلع الشجرة، لكن تصدى له أكثر من رجل وامرأة بعد أن سمعوا كلام الشاب. قالوا لن يقطع الشجرة أحد. هذه الشجرة تبكي على أولادهم الذين قتلهم البوليس يوم 28 يناير. أجل. هكذا سمعت أن أمين شرطة حصل على البراءة من المحكمة، وكان قد قتل العديد من الشباب في هذا الشارع! تركتُ من يركب

معي وقلت له سأعود لن أكمل معك. أنا مش ناقص مجانين. كان نصيبي أن أقابلكما في حدائق القبة.

ثم ضحك وقال:

- أمس ركبت معي فتاة جميلة من ميدان التحرير وقالت لي أوصلها إلى "دبليو سي القبة!"

واستمر يضحك، بينما تبادلت ونجوان النظر في دهشة. كانت نجوان تجلس في المقعد الخلفي وجوراها ابنتنا نهاوند. قالت نجوان:

- يعني إيه؟

قال السائق:

- كانت بتتكلم عربي ضعيف. البنت الحلوة قالت بلغة مكسَّرة إنها إنجليزية لكن باباها مصري، وهذه أول مرة تأتي إلى مصر. قلت لها "دبليو سي" يعني دورة مياه، فشاورت بيدها كأنها تقول لي أقول تاني، قلت لها أو حَمّام، قالت صح - وضحك أكثر - كانت تقصد حمَّامات القبة!

ضحكتُ ونجوان بقوة. أحسست بفرح لأن نجوان ضحكت ولا بد خرجت من خوفها ولو قليلا. قال السائق:

- البنت دي جاءت من إنجلترا لترى ميدان التحرير. كان نفسها تشوف الميدان اللي حصل فيه الثورة. قلت لها طيب والنبي ما تقولي لحد لحسن ماترجعيش إنجلترا.

ضحكنا، وقال:

- قالت لي أنا مصرية. اسمي ديانا صحيح وأمي إنجليزية لكن بابا اسمه "علي محمد". يعني مش أخاف. قالت كدا بالضبط.

وسكتنا جميعا.

عند ميدان رمسيس بدا الكوبري متسعا وسالكا، فاندفع السائق

يقول الحمد لله. كنت صامتا ونجوان أيضا. لم أشأ أن أخبر الرجل أني رأيت شجرة سوهاج وهي تنخلع، وبالطبع لم أخبر نجوان حتى الآن، وحمدت الله أنها لم تسألني كيف لم أعرف شيئا عن ذلك. قلت للسائق أن يتركنا على مشارف ميدان التحرير. سندخل شارع محمد محمود مشيا. في الحقيقة كنت أريد أن أتطلع إلى الأشجار في الميدان. إذا كانت الأشجار تنخلع حزنا على شهداء الثورة فلماذا بقيت أشجار الميدان؟ هل لم يأتِ موعدها للانخلاع أو الطيران في الفضاء بعد؟

وصلنا إلى شارع محمد محمود. دخلنا العمارة التي بها دار نشر "فُل وورد" صعدنا إلى الطابق الثاني حيث الدار. استقبلنا حامد شحاتة ضاحكا. ما إن جلسنا وتركت نجوان نهاوند تتحرك براحتها حتى ضحك حامد وقال:

- طبعا لن يصدقني أحد. أكثر من صديق وصديقة كلموني يسألوني عن صحة ما أقول. كلهم اتفقوا على أن أغير نوع الحشيش الذي أدخنه.

واستمر يضحك. ثم استطرد:

- على أي حال أنا نسيت الموضوع. الأحسن أن أنساه فعلا.

قالت نجوان:

- أنا لن أنساه وغير قادرة على نسيانه.

نظر حامد إليها في دهشة، فاستطردت:

- أنا أيضا جاءتني مكالمة بصوت طارق.

عاد حامد ينظر إليّ. إنه يعرف قصة حب نجوان مع طارق، ويعرف كيف تزوجنا بعد استشهاد حبيب كل منا. حط علينا الصمت للحظات، ثم قال حامد:

- هذا أمر يدعو إلى القلق حقا. كنت أظن من قالوا لي ذلك يمزحون، لكن أنتِ جئتِ إلى هنا ولا يمكن أن تمزحي.

قلت:

- أنا أيضا جاءتني مكالمة من نادين. لا تؤاخذيني يا نجوان لم أشأ أن أخيفك أكثر. لكن يبدو الأمر فعلا منتشر كما يقول حامد.

ارتبكت نجوان ثم سألتني مندهشة:

- هل قلت إنه جاءتك مكالمة من نادين؟!

كانت دمعة بدأت تترقرق في عيني مسحتها براحة يدى وقلت:

- أكثر من ذلك. أنا رأيت الشجرة التي انخلعت في سوهاج. كنت أقف تحتها. قلت ربما كانت نادين تقف تحتها يوما. وفي الأقصر رأيت صاحب البيت الذي طارت منه الشجرة يجلس صامتا شاردا بالمقهى قبل أن تطير. صحيح أن التي زرعت الشجرة هي ابنته إيزيس في طفولتها.

حط صمت عميق ووقف حامد يدور أمامنا في الغرفة. ثم سمعنا هرجا في الشارع فأطلّ حامد من النافذة وهتف:

- تعالوا شوفوا بسرعة. البوليس يمسك بثلاثة صبية والناس تتجمع حولهم.

قلت لنجوان أن تبقي مع ابنتنا، ونزلت مسرعا وراء حامد. وجدنا ضابطا وأميني شرطة يمسكون بثلاثة صبية لا يتجاوزون الخامسة عشرة، والناس تتجمع حولهم. يقول أحد الصبية:

- حضرتك نحن كنا نقف نتحدث. نحن لم نرسم شيئا. ليس معنا أي أدوات رسم. نحن قادمون من مدرسة الليسيه ومروَّحين بيوتنا.

قال الضابط في عنف:

- الكلام دا تقولوه يا روح أمك أنت وهو في القسم. أنا شايفكم قدام الرسومات.

هنا تقدم منه حامد قائلا:

- يا أفندم أنا مكتبي هنا. دار نشر "فُل وورد". أكيد حضرتك عارفها. البوليس كله يعرفها. أنا جئت منذ ساعة ولم تكن هناك أي رسوم ولا جرافيتي على الجدار. منذ أن أزالت المحافظة الرسوم لم يرسمها أحد.

أشار الضابط إلى الرسوم التي لا نراها وقال ساخرا:

- تريد أن تقول لي إنها ظهرت وحدها فجأة منذ دقائق. فاكرنا هبل ولا إيه؟

كانت سيارة شرطة قد تقدمت مسرعة، فدفع الضابط وأمناء الشرطة بالصبية الثلاثة إليها. قال حامد:

- طيب أين هي رسوم الجرافيتي حقا؟ وإذا كانوا رسموها فمن أخفاها؟

ثم حاول أن يقف في طريق إصعاد الصبية إلى العربة، فهتف الضابط في أمناء الشرطة:

- هاتوه معاهم.

وهنا قلت:

- وأنا أيضا خدني معه لأني عنده في المكتب منذ ساعة، ولما أتيت هنا لم تكن هناك أي رسوم.

صرخ الضابط في أمناء الشرطة من جديد:

- هاتوا دا كمان وخدوا منهم الموبايلات.

كانت نجوان ترى ذلك كله من النافذة، ولا بد أصابها الهلع. عرفت فيما بعد ونحن نجلس في مقهى ريش كيف تركت نجوان الغرفة جارية إلى أسفل. نسيت ابنتنا نهاوند ونزلت إلى الشارع تسأل من يقفون من الناس عما جرى. أخبروها بحكاية التلاميذ الصبية مع الجرافيتي. نظرت أمامها وقالت:

- أين هو الجرافيتي؟ الجدار خال من كل شيء.

حـطَّ الصـمت علـى الواقفين لحظـات، وظـهرت الدهشـة علـى وجوههم حتى قال أحدهم:

- صحيح. لا يوجد جرافيتي، فلماذا أخذوهم؟

هكـذا حكت لنا نجـوان أنا وحامد فيما بعد. ثم استطردت في حكايتها:

قال رجل عجوز أنيق الملبس:

- كانت هنا حقا رسوم كثيرة لكنها اختفت. أنا شفتها.

ضحك بعض الواقفين، فقالت نجوان منفعلة للرجل:

- هكذا أنت تؤكد كلام الشرطة.

لكن الرجل العجوز بدا صامتا، ثم نزلت من عينه دمعة وقال:

- أنا يا بنتي والد المرحوم الفنان سامح بكير الذي استشهد يوم 28 يناير. كنت متعود أمر هنا أرى صورته التي رسمها له زملاؤه. بعد أن مسحت المحافظة الجرافيتي بطلت أمشي هنا. بالليل أمس حلمت أن الجرافيتي رجع، فجئت ووجدته رجع حقا، لكن للأسف اختفى بسرعة بعد أن قبضوا على الشباب.

حكـت لنـا كـيف انصـرف الـواقفون فـي حـيرة، وعـادت حركـة السـيارات أسـرع. وبينمـا هـي شـاردة فيمـا قالـه الرجـل انتبهت فصـرخت "نهاوند بنتي". أسرعت عائدة إلى دار النشر. صعدت بسـرعة فوجـدت نـهاوند جالسة على مقعد تتأمل لوحة للفنان جورج البهجوري، بها أوجه بعض الفنانين والكتاب. أخذتها في حضـنها وانـدفعت تبكي وتقول لنفسها "أيـن ذهبـوا بالشـباب وبحامـد ونـور الآن؟". فتحت فيسبوك لتكتب ما جرى. وجدت على فيسبوك هاشتاج لا بد أن صاحبه يسمح بمشاركة فيسبوك لما يكتبه على تويتر.

#جرافيتي_محمد_محمود_رجع_مكانه واللي مش مصدق ينزل يشوف.

بسرعة كتبت قصة ما جرى على صفحتها في فيسبوك، وعَرَفَت أن عددا من المحامين الشباب سيجرون إلى قسم عابدين الأقرب إلى مكان الأحداث. وبدأ سيل من التضامن معي أنا نور الصحفي زوج نجوان، وحامد شحاتة صاحب دار" فُل وورد".

قالت لنا نجوان إنها، بعد أن اشتعل الموقف على صفحات فيسبوك بسرعة رهيبة، أخذت ابنتنا وأسرعت إلى قسم عابدين!

- 5 -

في غرفة مأمور القسم كنا نحن الخمسة. الصبية الثلاثة واقفون في أحد الأركان وأنا وحامد جالسان. كان حامد مبتسما ولا يكف عن الحديث مع المأمور:

- يا أفندم ما يحدث سوف يسيء إلى الشرطة. أنا جئت إلى مكتبي قبل القبض على هؤلاء الشبان الصغار بساعة فعلا، ولم تكن هناك أي رسوم ولا جرافيتي على جدار الجامعة الأمريكية. ما يقوله الأخ الضابط غير صحيح.

- لكن الضابط رأى الرسوم. هل يكذب؟

- طيب. سنقول إنه رأى الرسوم. هل يمكن لهؤلاء الصغار أن يرسموها في ساعة؟ وأين هي أدوات الرسم؟ إنهم يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم. هل وجدتم فيها أيّ أدوات رسم؟ هذا إذا تصورنا يعني أنهم فنانون كبار سيرسمون الجدار في ساعة.

كنت أجلس صامتا أفكر في نجوان وماذا عساها أن تفعل الآن. لم نكن قد تقابلنا بعد وحكت لي ما حكت. فكرت ما الذي يحدث بالضبط وما معنى هذا أيضا؟ رسوم تظهر يراها الضابط ثم تختفي . هل يتسع الخيال أكثر اليوم ليشمل أيضا رجال الشرطة؟

كانت ألاحظ أن المأمور ينظر إليّ بين لحظة وأخرى يكاد يسألني ثم يتراجع، بينما كان الصبية الثلاثة يبتسمون حتى الآن مندهشين غير مصدقين ما يحدث لهم. كان الضابط الذي قبض على الجميع يجلس ينظر إلينا في قرف شديد. فجأة دخلت نجوان الغرفة بسرعة، وخلفها أمين شرطة يحاول إيقافها وهي تحمل نهاوند على صدرها. "إوعَى سيبني" صرخت وهي تدخل، ووقفت قائلة للمأمور بصوت عالٍ:

- نحن لن نخاف منكم. ما فعله حضرة الضابط لا يصدقه عقل.

أرسل حضرتك حد يشوف الجدران. لا رسم واحدا عليها.

ونظرت إلى الضابط صارخة:

- لماذا تفعل ذلك؟ تريد أن تزيد عدد المقبوض عليهم وتترقى؟!

وهنا هتف المأمور:

- اخرسي.

انتبهت ونظرت إليّ وحامد، فقلت كاظما غيظي من المأمور:

- اهدأي يا نجوان حضرة المامور يتكلم معنا بهدوء واحترام.

وقف الضابط يقول:

- ومن أنتِ؟

قالت وهي تشير إليّ:

- أنا زوجة نور.

قال الضابط:

- طبعا أتيتِ لتشهدي زورا - وخاطب المأمور - يا باشا مش حنخلص منهم. يا ريت حضرتك تسمح لي أحرر محضرا لكل واحد فيهم. حضرتك سامحني دلعتهم أوي!

هنا دخل أمين الشرطة الذي لم يستطع إيقاف نجوان، وقال للمأمور إن ثلاثة محامين شباب في الخارج، يريدون أن يطمئنوا على المقبوض عليهم.

وقف المأمور وبدت عليه الدهشة، فقلت:

- ليت حضرتك فعلا ترسل أحدا ليرى ما إذا كانت هناك رسوم جرافيتي أم لا على الجدار، وتحسم المسألة.

هنا دق تليفون مكتب المأمور فتناوله في إهمال. بعد أن قال "آلو" ظهرت الجدية على وجهه لحظات سكت فيها الجميع لكن

الضابط قال لنا بهدوء:

- أنا بالمناسبة اتصلت بالأمن الوطني وأنا في الطريق، وسوف ترون ما إذا كنت كاذبا أم لا. لن تعودوا إلى بيوتكم أبدا.

ثم وقف وتركنا خارجا من الغرفة، بينما الصبية الثلاثة ينظرون إلى بعضهم وإلينا، وقد بدأ الرعب على وجوههم يظهر.

انشغل المأمور بسماع المكالمة، ثم ظهرت الدهشة على وجهه وهو يقول بين لحظة وأخرى "حاضر يا أفندم. كنت سأفعل هذا". وضع سماعة التليفون ثم نظر إلينا وقال:

- اتفضلوا مع السلامة. سيأخذون بياناتكم فقط وتخرجون.

ونظر إلى الصبية الثلاثة ثم قال:

- وأنت يا بني أنت وهو، لا تمشوا في شارع محمد محمود هذه الأيام – ثم ابتسم- سنترككم لأننا استخدمنا مدرستكم كثيرا في ضرب المتظاهرين أيام محمد محمود!

ونادى بصوت مرتفع "يا أحمد بيه". دخل الضابط الشاب ورآنا مبتسمين، فظهر الغيظ الشديد على وجهه. قال له المأمور وهو يحملق فيه كأنما يرسل إليه رسالة أن يصدق ما يقول:

- لا توجد أي رسوم على جدار الجامعة الأمريكية يا حضرة الضابط.

لكن الضابط قال:

- سيادتك صدقتهم؟ لقد رأيتها بعيني.

- الذين اتصلت بهم أنت في الأمن الوطني، أرسلوا من يخبرهم بالحقيقة، ولم يجدوا رسما واحدا. اسمع. رئيس فرنسا قادم غدا ولا نريد أن نحتك بالعيال الهبل بتوع الثورة دلوقت. خلينا نشوف الأهم. ومصيرهم عندنا برضه!

بعد أن صوروا بطاقات هويتنا جرى الصبية الثلاثة في الشارع،

بينما وقفت في الشارع وحامد ونجوان وابنتنا في يدها، ومعنا المحامون الثلاثة الذين لم يتسع لهم الوقت للدخول.

قال أحدهم، وهو المحامي عبد العزيز محمد الذي نعرفه جيدا.

- لا توجد فعلا أي رسومات على الجدار، لكن لا يمكن أن يغامر ضابط بكذبة مثل هذه من السهل اكتشافها.

وهنا قالت نجوان:

- الضابط لم يكذب. الرسوم كانت موجودة. أجل. الجرافيتي كان موجودا. لكن مؤكد أنه لم يرسمه التلاميذ الصغار!

هنا أحسست أن خللا نفسيا حدث لنجوان. نظرت إليها مندهشا، ثم تردد بصري بينها وبين حامد، فقالت:

- نصعد إلى دار النشر وسأحدثكم بكل شيء. أنا لست مجنونة.

هنا ضحك المحامون وصافحونا وانصرفوا، بينما قال المحامي عبد العزيز محمد:

- طيب أبلغوني بما تتفقون عليه، حتى إذا حدث لكم شيء آخر أستطيع الدفاع عنكم.

وما إن ابتعد عنا حتى قال حامد:

- نفسي انسدت عن الشغل اليوم. هيا نجلس في مقهى ريش أو إستوريل بعيدا عن هذا الشارع ونتحدث في الأمر. أريد أن أسمعك يا نجوان.

في مقهى ريش تركت نجوان نهاوند تتحرك بين المقاعد. صاحبة المقهى كانت تنظر إليها مبتسمة في البداية. سكتت رغم أنها كادت فيما يبدو عليها تخبرنا بعدم اصطحاب الأطفال. هي تعرفنا. تتذكرنا لا بد منذ أيام الثورة. وبعدها في كثير من أيام الجمع الشهيرة. كان يدير المقهى ذلك الوقت أخو زوجها المتوفى. لقد اختفينا منذ سنوات حقا كما اختفى الكثيرون من الشباب ممن تعودوا على المقهى. طلب حامد بيرة لنا جميعا،

وجلسنا نشرب ونأكل من المزات القليلة التي جاءت مع البيرة. قال حامد لنجوان:

- أريد أن أشرب عشر زجاجات بيرة قبل أن أسمعك، لأني لن أصدق أي شيء، ولا أستطيع أن أكذبك!

ابتسمتُ وقلت:

- الغرائب تزداد علينا، فكيف سنصدق هذا كله؟

قالت نجوان بهدوء:

- أنا لم أرَ أي رسوم جرافيتي، لكني قابلت الأستاذ بكير، والد الشهيد سامح بكير في الشارع. أجل.

وحكت لنا ما سبق أن قلته أنا، حتى قالت:

- لقد رأى من بينها وجه ابنه سامح المشرق الجميل.

قلت:

- لكننا لم نرَ شيئا.

قالت:

- ولا أنا. هو الذي قال ذلك. قلت له: لكن لا توجد رسوم. فقال إنه أيضا مندهش لأنه ما كاد يراها حتى اختفت. اختفت حين أمسك الضابط وأمناء الشرطة بالشباب الصغار.

قال حامد شاردا لا يصدق:

- أنا أعرف الأستاذ بكير. أعرف شكله.

أمسك بالموبايل الذي أعادوه له عند خروجه من القسم - أعادوا الموبايلات لنا جميعا- وراح يبحث فيه عن صور لسامح بكير حتى وجدها، ووجد له صورة عائلية أطلع نجوان عليها، فهتفت:

- هو نفسه الأستاذ بكير!

وضع حامد الموبايل على المنضدة، وعبَّ من البيرة وهو يهز رأسه، فقلت:

- الحكاية تكبر.

قال حامد:

- الخوف أن تبدأ وزارة الداخلية في القبض على الناس، بسبب الأوهام التي يراها الضباط.

قالت نجوان:

- قلت لكم: الضابط لم يتوهم. هو فقط ظلم الشبان الصغار. هناك شيء غريب يحدث في مصر الآن.

ضحك حامد، وقال:

- مجلس إدارة العالم على رأي سيادة "الخابور الإستراتيجي"! آسف، قصدي الخبير.

ضحكنا بصوت عال هذه المرة، لفت انتباه العدد القليل جدا من الحضور. ولفت انتباه صاحبة المقهى البيضاء مستديرة الوجه، فاحمر وجهها قليلا وهزت رأسها صامتة. ثم رحنا نشرب البيرة صامتين، حتى قالت نجوان:

- لماذا حقا أتينا إليك يا حامد اليوم؟

انطلق يقهقه. ابتسمتُ وقلتُ:

- الأفضل أن نعود إلى البيت وننام. لم أنم أمس في الأقصر ولم تنم نجوان في القاهرة.

قال حامد:

- ولا أنا نمت والله.

- 6 -

عاد حامد شحاتة إلى دار نشر "فُل وورد" في شارع محمد محمود. قال لنا ونحن ننصرف من المقهى إنه سيبيت بها الليلة. لقد تعودت زوجته على غيابه عن المنزل. لديه فوتيل طويل يفرده ليكون سريرا عند الحاجة. لا بد أن مساعديه في دار النشر جاءوا الآن. مع كل منهم مفتاح لباب الدار، فيدخلونها في أي وقت. لقد قرر أن يبقى الليلة في مكتبه حتى الصباح دون أن يخبر أحدا غيرنا بذلك. السهرات التي تتم في الدار توقف عنها بعد ثورة يناير، لأن الدار كانت دائما مغلقة. لم تكن هناك فرصة لفتحها. المعارك التي لم تنقطع في شارع محمد محمود جعلت الكثيرين يتركون شققهم، من فرط ما عانوه من قنابل الدخان ومن أصوات الرصاص. لقد عادت الدار للانتظام في العمل منذ عام، لكنه لم يعد إلى طريقته القديمة في السهر مع الكتاب والصحفيين في الدار. خسر كثيرا بسبب عدم كفاية ما يُوَزَّع من الكتب، ولم يعد سهلا أن يعزم الأعداد الكبيرة التي تحضر على نفقته. ما يشربونه من بيرة وويسكي، وما يأكلونه من لحوم وأسماك ودواجن ومَزَّات. ثم إن موقع الدار صار أقرب موقع يمكن للأمن أن يراقبه. لقد اتُهِم من قبل بإيواء بعض المجرمين، الذين قيل إنهم اعتدوا على قوات الجيش عند مجلس الوزراء. ولولا الضجة التي حدثت في مواقع التواصل الاجتماعي ما خرج من الاتهام. من حسن حظه أيضا أن من اتهموهم بذلك ممن يجلسون في الدار كانوا ثلاثة من الشعراء، وكانوا معا في مهرجان شعري في "المغرب" وقت المعارك في شارع محمد محمود. كان المقصود إرهابه فقط. وسيظل هذا الأمر وسيزيد من اليوم، بعد أن تعاطف مع الشباب الصغار الذين قبض عليهم الضابط. عليه أن ينتبه الآن إلى أن تهما ستلقى في طريقه. لا بد أن هناك أجهزة للتنصت والتصوير موجودة في الدار لا يعرف مكانها. ويمكن جدا أن يكون تمت مراقبته بعد أن خرج من قسم البوليس اليوم، وذهب من يزيد عدد الكاميرات وأجهزة التنصت. العاملون معه لا بد لا يفهمون في ذلك. يمكن أن يدخل الدار اثنان

من الأمن في زي مدني، يتحدث واحد معهم ويقوم الثاني بتركيب كل شيء. تحدثنا في كل ذلك ونحن نشرب البيرة ونضحك، قبل أن ننصرف. سنعرف أخباره اليوم من فيسبوك وتويتر.

في شقتنا أخذنا نتابع أنا ونجوان صفحاتنا وصفحات أصدقائنا على فيسبوك. مئات الرسائل والبوستات تطمئن عليَ وعلى حامد، وتعلن مساندتها لنا وللشباب الصغار الثلاثة. في الصفحة العامة وجدت الحديث طويلا ومتفرقا بين العشرات حول "ماذا يحدث في مصر؟". أشجار تترك أماكنها، وجرافيتي الثورة يظهر على جدران الشوارع قم يختفي . اندهشت جدا لظهور الجرافيتي على جدران مدينة السويس، وعلى جدران مباني كورنيش مدينة الإسكندرية. كل هذا ظهر اليوم حين انتصف النهار. الأخبار تقول إن المحافظات أرسلت بسرعة السيارات والعمال ليقوموا بدهان الجدران من جديد، لكن العمال لا يرون شيئا على الجدران!

" ألخص لكم الوضع في الإسكندرية الآن. مديرية الأمن أمرت الشرطة أن تقبض على أي شخص جوار الجرافيتي الذي ملأ الجدران فجأة. في الوقت نفسه أرسلت المحافظة سيارات وعمّال لدهان الجدران ومحو ما عليها من رسومات. الحاصل أن العمال لا يرون شيئا يمكن الدهان فوقه، بينما رجال الشرطة يرون أن هناك رسومات على الجدران. العمال يستجيبون للشرطة وهم يبتسمون ويقولون في نفسهم "ماشي إحنا حنخسر حاجة؟ كله من فلوس المحافظة" المثير الآن والسؤال الذي يسأله الجميع: كيف يرى رجال البوليس الجرافيتي طول الوقت ولا يراه الناس ؟ وهل حقا هناك جرافيتي أم أن مجلس إدارة العالم اخترع شيئا تقوم الدولة به للقبض على الشباب كل يوم؟"

جاء الرد على هذا البوست الطويل من السويس والإسماعيلية وبورسعيد وسوهاج وأسيوط وأسوان والمحلة الكبرى. بوستات تقول باختصار "هذا ما حدث في بلدنا بالضبط اليوم". وأخرى تقول "إن المقبوض عليهم في مدنهم لم يطلق سراح أحد منهم ، على عكس ما جرى فى القاهرة. سيعرضون على النيابة فى الأيام

المقبلة".

تركتُ فيسبوك والإنترنت على الإجمال، ووجدت أن الوقت لا يمر. فكرت أن أعود إلى "وسط البلد" حين ينتصف الليل، لأرى جدار الجامعة الأمريكية في شارع محمد محمود؛ وهل تظهر عليه الرسومات بالليل. فكرت أن أذهب إلى "الزاوية الحمرا" لأرى الشجرة الباكية التي حدثنا السائق عنها ساخرا. أريد أن أتأكد بنفسي. يمكن أن تخرج الشجرة من مكانها الليلة أمام عينيّ، فيكون ما يحدث رسالة لي وحدي دون العالمين!

نجوان أخذها الصمت بقية اليوم. قالت لي: كنا نعتقد أن هناك من يخيفنا بتقليد أصوات الأحباء، لكن لماذا يخيفون أو حتى يضايقون الضباط؟ لم تكن لدي أي إجابة. فقط كنت أفكر في الخروج من البيت مع العاشرة مساء، لأذهب إلى الزاوية الحمرا، وأجلس في مقهى حتى ينتصف الليل. سأعرف من الناس أين توجد الشجرة. سأتحدث عنها معهم، ولن أقول لهم إني ذاهب إليها. أمين الشرطة المتهم بقتل العدد الكبير من الشباب، والذي رآه الناس، فاز بالبراءة كما فاز كل من اتهم بقتل الشباب يوم 28 يناير، في أي مكان في مصر. في المحافظات الكبيرة والمدن والقرى الصغيرة. بل إن الرئيس الأسبق نفسه حسني مبارك، فاز بالبراءة في قتل الثوار. كذلك وزير الداخلية. لن أفكر في شيء الآن.لا أريد أن أمشي وراء ما جرى. الإنسان طين وقش، والله صانع الفخار. اعتبرت ما جرى قدرا وعليّ أن أتطلع إلى الأمام. بماذا تفيدني الإدانة لأحد؟ وبماذا يفيدني الانتصار لآخر؟ لقد قدر الله للثورة الفشل في النهاية، كما قدر لها في أيامها الأولى الانتصار. إنني أبحث عن موطن راحة لعقلي وروحي في هذه الحياة، حتى لو كذبت على نفسي. لكنها الأشجار تتوعدني وتبدأ في ترك أماكنها، وتُذَكِّرني بالثوار الصغار الأبرياء أحباب الله. لا أريد أن أمشي وراء أعداد القتلى. لقد تجاوزوا كل قدرتي على الاستيعاب. اللهم إلا للباحثين المتخصصين في هذا الشأن، من الجمعيات الأهلية القانونية. أما بالنسبة لي، فأنا أعرف أنه في الثامن والعشرين من يناير مات أكثر من ثمانمئة شهيد، وبعد

الثورة أعداد كبيرة أيضا من الشهداء. لم أعد قادرا على إحصاء عـدد مـن مـاتوا، فـي أحـداث محمد محمود ومجلس الـوزراء وماسـبيرو والمجمـع العلمـي، وميـدان التحـرير نفسـه، وقصـر الاتحادية. لم تعد تعنيني الأرقام. يعنيني فقط أن الطريق إلى السماء صار مزدحما بالشهداء. هل صارت السماء حزينة حقا لأنها لم تعد قادرة على استيعاب هذا العدد من الشهداء؟ نحن نحزن على الشهداء من الجيش والشرطة يقتلهم الإرهاب القذر كل يوم الآن، فلمـاذا لا يـحزن النظـام الحـاكم على شهداء الثـورة؟ لماذا يعتبر صورهم والحديث عنهم جريمة وهم لم يصنعوا الإرهاب؟ لماذا لا يفهم أن رصيده الحقيقي هو شباب الثورة في مواجهة الإرهـاب؟ لمـاذا يختـار أن يكون وحيـدا؟ هل لهذا السبب تأخذ السماء أوراقها من فوق الأرض . الأشجار؟

نمت لأستيقظ في العاشرة. ستنام الآن نجوان لأنها ستذهب إلى عملها في الغد. ونامت نهاوند على سريرها الصغير. قلت لنجوان إنـي سـأذهب إلـى الصـحيفة أمضـي فيـها لـيلتي. لقد غبت عن الجريدة ثلاثة أيام الآن. وأخذت طريقي إلى حي الزاوية الحمرا!

وجدت نفسي أفكر كيف كانت الفتنة الطائفية نارا في هذا الحي، في أواخر السبعينات من القرن الماضي. لقد قيل إن الفتنة كانت مفتعلة؛ أقامها النظام ليصرف أنظار الناس عن سياسة الرئيس المؤمن أنور السادات! لكن حتى لو كانت مفتعلة، فلقد استقرت الفتنـة فـي وعـي الأغلبيـة مـن الشـعب الفقـير، الـذي صار الفقر والجهل والمرض شعارات الدولة الخفية لتحقيقها له! يا إلهي. كيف تعلَّمنا في المدرسة أن ما جرى في يوليو عام 1952 كان ثورة على الفقر والجهل والمرض. الآن لا أرى وجيلي من الشباب أنها كانت ثورة، لكنها محض انقلاب عسكري عطَّل استمرار الحكم المدني وتطوره، فانتهت الحال بالبلاد إلى ما انتهت إليه.

من جديد لا أريد أن أسترسل في التفكير، فلا فائدة غير الألم. أريد أن أظل عند موقفي من أن الإنسان طين وقش، والله صانع الفخار! إذن لماذا أريد أن أصل إلى شجرة الزاوية الحمرا وأرى كيف اتفق الناس على عدم قطعها؟ هل لا تزال فيهم روح ميدان

التحرير، حين كان الثوار، مسيحيين ومسلمين، يعيشون في حراسة بعضهم البعض؟ هل لا تزال فيهم هذه البراءة التي كانت سبب خداعهم، بسهولة، من رجال النظام السابق والإخوان المسلمين بلا فرق! وهل أتيت لأتحقق من أنين وبكاء الشجرة أم من أنين وبكاء الوطن! أجل. لا بد أن كل من يرفض قطع الشجرة يتذكر أيام التحرير، ولعله ساهم فيها.

وصلت إلى الشجرة بسهولة. جلست في مقهى صغير، فوجدت الناس يتحدثون عنها، فعرفت دون أن أسأل اسم الشارع. الحقيقة كان زقاقا، فأخذت طريقي إليه.

وجدته خاليا تماما. لا أحد يمر. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وهذه الأحياء لا تنام من الزحام. كيف لا يقف أحد تحت الشجرة أو يجلس جوارها يستمع إلى أنينها. ربما حين أقف أنا تبدأ الشجرة في التألم. ربما أسمع صوت طرقعات جذورها تحت الأرض، ثم تنخلع أمامي. تقدمت ووقفت تحت الشجرة لعلي أشعر بنقط الندى تنزل منها. لا بد أنها تبكي مثل شجرة سوهاج. لم أشعر بأي ندى يتساقط عليّ. سمعت شخيرا من نافذة قريبة وصوت امرأة، لا بد أنها زوجة من يشخر، تقول في غضب: " قلت لك نام في الأوضة التانية مع أمك. ذنبي إيه أنا أسهر أسمع الشخر دا كله؟".

ابتسمتُ وظللتُ واقفا قليلا، ربما يأتي نحيب الشجرة، لكن النافذة التي سمعت منها صوت المرأة والشخير انفتحت، وأطلت منها امرأة لا بد أنها التي صرخت في زوجها من قبل. كان شعرها منكوشا حول رأسها ووجهها المستدير الأبيض، وقميص النوم واسع يكاد يسقط من فوق كتفها، ويكشف اتساعه عن نصف ثدييها. سمعتها تحتد بصوت خفيض. الحقيقة أدركت ما تقول من حركة شفتيها: "جوازة وسخة". كنت أنظر إليها وأبتسم، لكني بسرعة أخفيت ابتسامتي. لقد لمحت الغضب على وجهها. فجأة حدثتني:

- لماذا تقف أنت هنا بالليل هكذا؟

- أنا؟

- أجل أنت أمّال أنا؟ من أنت؟ أنا عمري ما شفتك في هذا الشارع من قبل.

ارتبكت قليلا ثم قلت مبتسما:

- أنا صحفي. سمعت أن هذه الشجرة تبكي بالليل فجئت أكتشف ذلك بنفسي.

-خلاص يا سي الصحفي. الشجرة التي تريدها ليست هذه . التي تريدها طارت اليوم في السما. وبالمناسبة هي في الشارع الذي خلفنا. اذهب لترى مكانها. كله مياه. دموع يعني لم تجف!

وفجأة لطمت خديها وهي تصرخ:

- يا ولاد الكلب قتلتوا أصحابي الشباب كلهم، ولما الشجرة تبكي وتسيب لنا الدنيا تبعتوا صحفي يكتب موضوع! يا ولاد الكلب عملتونا اشتغالة! يا رب يا رب، يا رب خد البلد دي باللي فيها بأه كفاية كده. كفاية كده. كفاية كده.

وقفت مرعوبا والنوافذ تنفتح حولي يطل منها رجال ونساء وأطفال. من النافذة الأولى ظهر رجل أربعيني جذب امرأة شابة كانت قد سبقته في الظهور ودخل ثم أغلق النافذة.

راحت النوافذ تنغلق واحدة بعد الأخرى، ويختفي من فتحها ومن ينظر منها، والصمت يحلّ على المكان، وبدأ ظلام أكثر ينزل حولي. أضواء البيوت الواهنة التي كانت تطل من خلف شيش النوافذ كلها تنطفئ. لا يوجد بالشارع عمود إنارة واحد. كيف أخطأت في الشارع حقا؟ وجدت أن أفضل ما أفعله هو أن أترك الشارع والمنطقة كلها. لا أذهب إلى المكان الحقيقي للشجرة. لكن هل سأنسى هذه المرأة الصغيرة التي صرخت؟ لا بد أن أجد طريقة للقائها فيما بعد.

كنت في حاجة إلى الجلوس أفكر قليلا فيما شاهدت. وجدت المقهى الذي جلست فيه من قبل ساهرا. كان قد صار شبه خال.

كيف لم يتداول أحد خبر طيران الشجرة اليوم حقا على فيسبوك؟ فتحت الموبايل فوجدت بوست طويلا لحامد شحاتة:

"في شارع محمد محمود والساعة قد اقتربت من الواحدة صباحا تركت مكتبي. لا أحد في الشارع. لا يبدو أن رسوما ستظهر على الجدار من جديد. تركت الشارع وعدت إلى مكتبي مرة أخرى، لكن وأنا أعد لنفسي فنجانا من القهوة أُعادل به ما شربت من بيرة من جديد في المساء، سمعت صوتا عاليا يأتي من الشارع. بسرعة نظرت من النافذة فرأيت رجلا مسنا يقف وسط الشارع وحده يخطب في الفضاء خطبة طويلة، سأحاول أن أكتبها:

أولادي وكل الشباب أصحابهم مشغولون بالأشجار التي تترك البلاد. مشغولون بجرافيتي صور الشهداء الذي يظهر على جدران البلاد. في الحقيقة لا أحد مشغول بالموت والموتى مثلي. أنا الذي تجاوزت السبعين وأبدو في صحة جيدة لا يدرك أحد أن في قلبي عطبا وفي روحي حزنا، لأني أعرف أني أقترب من الموت. كل الذين ماتوا في الثورة من الشباب، ماتوا دون انتظار للموت، وهذه قيمة الشهادة الحقيقية. هؤلاء أحسدهم. هم الآن يجدون من يتذكرهم ومن يحزن من أجلهم ومن يريد أن ينتقم لهم. لكن من هم مثلي يحزنون قبل الموت لاقترابه منهم، ولا أحد يعرف أو يهتم أن يخفف عنهم. وبعد أن يموتوا في موعدهم الذي حدده القدر لا أحد يفكر في الانتقام لهم. يقول الجميع الله جاب الله خد الله عليه العوض! أنا أحسد الموتى في المعارك. ما الذي جعلني لا أموت في حرب 67 أو حرب 73 أو بينهما في حرب الاستنزاف؟ لماذا أعطاني الله عمرا لأرى الموت يقترب مني ولا أستطيع إيقافه؟ هنيئا لكم يا شباب بموتكم غيلة، ولا تحزنوا يا من تريدون الانتقام لهم. من قتلوهم سيكبرون ويشيخون ويرون الموت يقترب منهم ولا يستطيعون إيقافه. ربما يرون الموت الطبيعي يأخذ زوجاتهم وأولادهم وأحفادهم، ويطول عمرهم مئتي سنة ليموتوا عشرات المرات. اتركوا القتلة يعيشون حتى يروا موتهم يقترب ولا حيلة ولا مال سيفيدهم. ألا هل بلَّغت اللهم فاشهد.

رأيت الرجل ينظر إلى الحائط ويبكي، وهو يمشي بيده عليه، ثم يهبط شيئا فشيئا إلى الأرض حتى سقط بهدوء عليها. نزلت مسرعا لألحق به، فوجدت سيارة شرطة قادمة بسرعة، فتوقفت أنا قبل أن أعبر الشارع. سمعت الضابط يصرخ:

- هاتوا المجنون اللي داير يخطب في الشوارع بالليل دا ويدعي علينا."

- 7 -

عدت إلى منزلي مع الفجر. لم أذهب إلى الجريدة. ما إن فتحت باب الشقة حتى سمعت صوت نجوان:

- مين؟

أجبت:

- أنا نور يا نجوان. من سيكون غيري؟

اتجهت إلى الصالة مندهشا من يقظتها. وجدتها جالسة أمام اللاب توب يغالبها النعاس.

- لماذ استيقظتِ يا حبيبتي؟ لديك عمل في الصباح.

رفعت وجهها إليّ فوجدت دمعة تترقرق في عينيها.

- هل حدث شيء جديد؟ هل اتصل بكِ طارق مرة أخرى؟

سكتت وراحت تنظر إليّ في حيرة ورعب.

- نجوان حبيبتي. أنا نور. ماذا يخيفك؟

جلست جوارها مسرعا آخذها في حضني. كانت مندهشة وهي تنظر إليّ كأنما تسألني: كيف عرفت؟ وهل حقا أعرف؟ ولماذا سألتها هذا السؤال إذا كنت أعرف؟ قالت:

- طارق كلمني مرة أخرى.

سكتُّ وأنا أضم شفتي في ألم وحيرة شديدة. ثم سألتها:

- ماذا أمامك في اللاب توب؟

مددت وجهي إلى الجهاز فرأيت صفحة حامد شحاتة على فيسبوك. رأيت ما كتبه حامد. هو كلام الرجل العجوز الذي قبض عليه البوليس وقرأته من قبل. قلت:

- ليت السماء تفعل ما قاله هذا المسكين الخائف من الموت.

قالت وهي تدفن وجهها في صدري باكية:

- قلت لك طارق كلمني مرة أخرى.

خفت أن أذهب بها يوما إلى طبيب نفسي. ليس معقولا أن تتكرر القصة. لكني قرأت "بوست" جديدا طويلا ظهر للتو على صفحة حامد.

"لم أستطع النوم في مكتبي. خرجت مع أذان الفجر. قلت أمشي على كوبري قصر النيل، أنظر إلى النيل وبخار الماء يصعد منه عند الفجر. خرجت من شارع محمد محمود. مشيت في الميدان الخالي أنظر إلى العَلَم المرفوع عاليا الذي وضعوه في الميدان. أتذكر كيف فكرنا يوما في نُصب تذكاري بأسماء الشهداء. كيف حتى لم نستطع أن نحقق هذا الحلم البسيط. وجدت على عمود الإنارة شابا يجلس فوقه يرفع علم مصر، ويحركه يمينا ويسارا. نفس العمود الذي كان يقف عليه (عادل متّى). عادل متّى الذي اشتهر بصعوده على أعمدة الميدان. فركت عيني ربما أكون في حلم. لم أرَ أي أثر للجرافيتي على جدار الجامعة الأمريكية، وتحقق لي أننا نحلم. فهل أحلم من جديد؟ لكني بعد أن فركت عيني وجدت عادل بحق أعلى العمود. ثم رأيته ينزل ويمضي من أمامي. أصابني رعب. عادل كان يأتي كثيرا إلى دار النشر قبل الثورة. كان يقابلني في الميدان ويلومني على إغلاقها. كنت أقول له ليس بإرادتي. كل المكاتب والكافتيريات في الشارع أغلقت بسبب دخان القنابل. ثم إن وجودي ووجود الشباب في مكان كهذا، في وسط الأحداث، يعني سهولة القبض علينا جميعا. مضى من أمامي كأني لا أراه ولا يراني. سأقول لكم ما جري بالضبط. لا تقولوا عني مجنون أرجوكم. شغلني عن توقيفه وسؤاله لماذا يتجاهلني، أني رأيت العمود يمشي وراءه كأنه قد ربطه في حبل بيده. وقفت مرعوبا أنظر إلى العمود. دخل عادل شارع التحرير والعمود خلفه. مشيت وراءهما على مهل. أوقفتني سيارة شرطة أول الشارع. سألوني: إلى أين تمضي؟ قلت لهم: تسألونني أنا ولا تسألون الذي يمشي أمامي بالعمود. نظروا إلى بعضهم في دهشة.

ضحكوا وسألني الضابط:

- هل أنت منهم؟

- من تقصد؟

- المجانين الذين ملأوا البلاد.

سكتُّ لحظة. لم أعد أرى العمود ولا عادل. قلت له:

- تعال معي إلى الميدان. سترى مكان العمود خاليا.

انطلق يضحك ويُشهِد أمناء الشرطة على جنوني، ثم قال:

- سأذهب معك. إذا وجدت العمود مكانه سأذهب بك إلى مستشفى المجانين، وإذا لم أجده سأقبض عليك بتهمة سرقة عمود إنارة.

سكتَ لحظات متحيرا، ثم قلت باسما:

- آسف جدا. لقد شربت بيرة أكثر مما يجب الليلة. أشكرك لأنك أعدتني إلى رشدي الآن.

تركته ومشيت. لدهشتي تركني. كيف يرون الجرافيتي ولا يرون العمود؟ لكني رأيته يتجه مسرعا إلى منتصف الميدان، وسمعته يصرخ من بعيد (اقبضوا على ابن الحرام الذي مَرَّ أمامكم). كنت دخلت في اتجاه شارع الفلكي وصعدت شقة صديقنا الفنان (مكرم) ورأيتهم من خلف النافذة يتفرقون في الشارع يبحثون عني. لا أظن أنهم انتبهوا إلى شكلي أو يتذكرونه جيدا. لكن يمكن أن يحدث ذلك الآن بعد نشر هذا البوست فيتم القبض عليّ. تُوجَّه لي تهمة سرقة عمود إنارة رغم أني قابلت الضابط وحدي. لو حدث ذلك لا تتخلوا عني".

ابتعدت عن نجوان قليلا وشردت أفكر: عادل متَّى قُتِل في أحداث مجلس الوزراء. قتل بشارع مجلس الأمة. جاءته رصاصة من القناصة فوق مجلس الوزراء. لم يكن الأول ولا الأخير. لكن عادل كان صديقا لنا أنا ونجوان. كان فنانا تشكيليا مثل سامح

بكير. مثل نادين. يا إلهي كيف نسيت أن نادين كانت ترسم. في بيتي أكثر من لوحة صغيرة أهدتها لي. لم تعترض نجوان على وجودها، كما لم أعترض أنا أن تحتفظ نجوان برسائل طارق بعد أن طبعتها علي ورق تحتفظ به . كان يرسلها إليها عن طريق فيسبوك والإيميل. كانا يفكران معا أن ينشرا رسائلهما في الحب يوما ما، كما كنت أنا ونادين نفكر أن نقيم معرضا فنيا مستوحى مما أكتبه من شعر. هذه الثورة إذا كان لها من ذنب فهو أنها فرَّقت بين الأحبة. ليس مهما أنها فشلت. ليس مهما أنها غيرت في الإنسان المصري، ليس مهما أنها أظهرت جيلا جديدا واسع الأحلام. ليس مهما أي صواب فعلته أو أي خطأ. وليس مهما من الذي فعل ذلك الآن. الثورة وأعداؤها كلاهما أراد الانتصار فدفع الأحباء الثمن. أجل لقد فرقت الثورة بين الأحبة. كان الحل أن أموت مع نادين وأن تموت نجوان مع طارق، وأن تموت مونيكا حبيبة عادل متّى معه، مونيكا الآن في أميركا. مونيكا عرفت أنها لم تخطئ في حق عادل، وأن من قتلوه سيقتلونها يوما. مونيكا فعلت ما فعلته كيت وينسلت -روز- في فيلم تايتانك بعد موت حبيبها ليوناردو دي كابريو -جاك- وغرقه. عاشت لأنه قال لها أن تعيش. هكذا أيضا قالت لي نادين في لحظاتها الأخيرة وهي على صدري. وهكذا قال طارق لنجوان وهو على حجرها.

كانت نجوان قد وقفت أمامي ذاهبة في ذهول إلى غرفة النوم. ذهبت وراءها.. تمددتْ فوق السرير. وقفتُ أنا أغير ثيابي، ثم تمددتُ جوارها أقول لها:

- أفضل شيء أن تتوقفي عن استخدام الموبايل عدة أيام.

نظرت إليّ ثم دفنتْ وجهها في صدري وهي تقول:

- أنا لست خائفة الآن. أنا أعرف أن هناك انتقاما يحدث من القدر ممن قتلوا أصحابنا. أشعر بأن الأمور ستزداد تعقيدا، وربما تنتهي مرحلة هروب الأشجار إلى هروب الأعمدة ثم سقوط البيوت. هل يمكن أن تنهدم البلاد على من فيها؟

رحت أربّت على ظهرها وهي في حضني وأقول:

- لا تضعي الأمور في حجم أكبر من حقيقتها. لا يزال في الأمر كثير من الغموض لا بد أن نتجاهله لبعض الأيام.

- هل ستستطيع أنت تجاهله، أنت الذي ذهبت إلى "الزاوية الحمرا" لترى ماذا حدث للشجرة التي حدثنا عنها السائق؟

اندهشتُ جدا. سألتها:

- من قال لكِ إني ذهبت إلى هناك؟

- أنا أعرفك. حب الاستطلاع عندك كصحفي كبير جدا، رغم أنك شاعر يحب أن يلوذ بالوحدة والتأمل. قل لي ماذا حدث هناك؟

ابتسمتُ وقلت:

- لن أكذب عليك. طارت الشجرة قبل أن أصل.

حط علينا الصمت. أعطتني ظهرها ونامت على جانبها. فكرت أنها لا بد عاجزة عن التعليق على كلامي. أنا أيضا عاجز عن الاستمرار في الكلام. أحطتها بذراعي وتركت نفسي للنوم أتمنى ألا يتأخر عليّ.

لا أعرف كم مرّ من الزمن حين استيقظتُ لأذهب إلى الحمام. ما إن جلست على قاعدة الحمام لأتبول حتى أدركت أني خارج الحلم. أجل. كنت في حلم غريب أتبول فيه جالسا فوق قاعدة رخامية، لكن في حديقة عامة وبها امرأة تقوم بعمل الشاي لرواد الحديقة. لقد رأيت نفسي أسأل عن الدكتور سليمان الشاطبي طبيب المسالك البولية الشهير، ووقف شخص يصف لي الطريق، ولا أعرف كم مشيتُ لأجد نفسي أجلس على قاعدة الحمام البيضاء في الحديقة. لا أجد "شطَّافا" متصلا بالقاعدة، ولا توجد حنفية جوارها ينزل منها شطَّاف متحرك للنظافة، وسمعت نفسي أصرخ في المرأة صاحبة الشاي "ماء" فجاءت مسرعة تحمل أربعة أكواب كبيرة من المياه الملونة. واحد منهما أحمر والثاني أزرق والثالث أخضر والرابع أصفر، قائلة: اتشطف باللي يعجبك!

لقد نهضت من النوم وأنا أمسك بكوب السائل الأزرق، أضع منه خلفي على مؤخرتي، وجلست مندهشا جوار نجوان، ثم تركت السرير واتجهت إلى دورة المياه لأتخلص من البول المنحشر في مثانتي. هل لهذا الحلم معني؟ ولماذا أحلم حقا بدورة مياه؟ هل هو طعم الأيام؟ ابتسمت. لا يجب أن أشغل نفسي. أحلامي دائما غير عادية، خصوصا أني لا أنام إلا بعد إجهاد كبير. لقد ضحكت نادين من قبل كثيرا من أحلامي وأنا أحكيها لها. كانت تقول لي دائما "أنت مجنون" وتلكزني بيدها في صدري في حنان. آخذها في حضني في الشارع غير عابئ بالمارة. أمشي أمرُّ على الرجل ذي الجلباب الأبيض الذي يهتف في الناس أن يتبرعوا لبناء مسجد، أمام مكتبة دار الشروق في ميدان طلعت حرب. وتقول لي نادين ضاحكة: "أستاذي أحمد صالح في الجامعة، الذي يبلغ السبعين من عمره، يقول لنا دائما عن هذا الرجل إنه يقف في هذا المكان منذ أواسط السبعينات يطلب التبرع للجامع". وأقول لها: أنا أنظر إلى الرجل فأجده شيخا عجوزا بحق. وترد نادين: "أستاذي أحمد صالح يقول إنه لا يعرف أنه أصبح عجوزا إلا حين يمر من هناك فيرى الرجل. أجل فالإنسان لا يدرك تقدمه في العمر إلا حين يرى أصحابه من الزمن الفائت". وأقول لها: "لكن من يحبهم الله تحبهم حبيباتهم فيطول عمرهم ولا يفارقون الشباب". كنت أقول لنادين ذلك وأنا أحيطها بذراعي وأقبِّلها بسرعة ونحن مسرعين إلى مقهى ريش، ولا آبه بكمين الشرطة الجالس رجاله أمام مكتبة دار الشروق، أو على الناحية الأخرى أمام شركة إير فرانس.

انتهيت وتركت دورة المياه. فكرت في الحلم مرة ثانية حتى لا أنساه. فكرت أن أكتب قصصا قصيرة كلها من الأحلام. نجيب محفوظ فعل ذلك. أكثر من كاتب أيضا فعلوا ذلك. المشكلة أني أخاف لو كتبت حلما يتحقق!

توقفت وسط الغرفة مندهشا مما أفكر فيه. هل يمكن؟ جلست على مقعد جوار السرير ورحت أفكر. أحاول أن أتذكر. هل حلمت يوما أن تنخلع الأشجار من أماكنها في البلاد؟ وضعت رأسي على

يدي. هل أكون أنا سبب كل ما يحدث؟

- نجوان.

همست أوقظها.

استدارت على ظهرها فوجدتني أقف جوار السرير.

- نعم يا حبيبي.

لم أشأ أن أسألها سؤالي. قلت:

- الساعة الآن السادسة صباحا. يجب أن تكوني في المدرسة في السابعة والنصف.

- اليوم الجمعة يا نور.

- لا يا نجوان أنت تحلمين. اليوم الأربعاء.

- سأنهض.

قامت على مهل بينما تمددت أنا من جديد فوق السرير. سأكمل نومي. ستأخذ نجوان كالعادة نهاوند معها إلى حضانة المدرسة. سأنام أنا الذي لا يبدو أني أستمتع بأي نوم. سأذهب إلى الجريدة في الظهيرة. وابتسمتُ. أي حلم جديد ينتظرني الآن؟ لكني على يقين أني حلمت يوما بالأشجار تترك البلاد. سأتذكر، على عكس ما يحدث دائما مع الأحلام، ذلك الحلم وذلك اليوم.

لم يكن عمود الإنارة الذي اختفى من ميدان التحرير هو الوحيد. بعد يومين اختفى عمود إنارة آخر من الميدان. عمود اشتهر خلال الثمانية عشر يوماالتي احتشد فيها الثوار بصعود أكثر من شاب عليه. اشتهر من بينهم الشاب الذي كان يصلي مع الجموع التي تصلي على الأرض. كان مشهده فوق العمود مثيرا جدا وهو ينحني ليركع، وينحني أكثر ليسجد فوق الجزء الأفقي المنحني أعلى العمود الذي لا يعرف أحد كيف ضبط توازنه فوقه. لقد نسي الكثيرون من هو بالضبط. لم يكن هذا الشاب غيري أنا الشاعر المغامر الذي فقد حبيبته نادين فوق كوبري أكتوبر. لذلك حين راجت إشاعة أن وزارة الداخلية عرفت اسم الشاب الذي كان يصلي فوق العمود في الميدان، وأنها بعد اختفاء العمود قبضت عليه من منزله عند الفجر، وجدت أنه من الشجاعة أن أقول على صفحتي على فيسبوك إني كنت ذلك الشاب، وإن وزارة الداخلية لم تقبض عليّ ولم تسألني عن العمود المختفي، ولا بد أنها قبضت على شاب مظلوم.

على الناحية الأخرى، كانت وزارة الداخلية ترى أن ما يحدث أمر لا علاقة له بما تتداوله وسائل التواصل الاجتماعي. الأشجار لا تطير حزنا على أحد، وكذلك لا تختفي أعمدة النور. هناك عصابة تفعل ذلك وتروِّج لهذه الأكاذيب عن الشهداء الذين لم ينتقم أحد لهم . وزيادة في حَبك القصة، أشاعت العصابة أن الجرافيتي يظهر على كل جدران البلاد ويختفي، ولقد قبضت وزارة الداخلية على شابين فوق أحد الأسطح المواجهة لإحدى العمارات في السويس، وهما يرسلان من جهاز سينما أشعة غير مرئية تصطدم بحائط العمارة، فتعكس عليها الأفلام التي صوروها من قبل، وهي رسوم الجرافيتي التي انتشرت وقت الثورة، وأن وزارة الداخلية الآن تراقب كل الأسطح المواجهة للجدران أو العمارات التي شهدت حركة الجرافيتي في مصر، ومنها ستصل إلى سارقي الأشجار وأعمدة الإنارة وترويج الإشاعات المضللة التي يُراد بها زعزعة الاستقرار.

بدا الأمر مقنعا للكثيرين ممن يتابعون ما يحدث علي شبكة الإنترنت. الحقيقة كانت أعداد المتابعين للأمر تفوق الملايين، رغم أن برامج التوك شو كأنما باتفاق مسبق أهملت الظاهرة تمام الإهمال. كان هناك عدد من المتابعين غير مقتنع بما قالته وزارة الداخلية في بيانها. لكن للمرة الأولى تتحدث برامج التوك شو في الأمر الليلة. كلها قالت الكلمات ذاتها. ما يحدث في مصر من تدبير عصابة كبيرة شديدة الخطورة، والأمر أقرب إلى إعلانات قناة "ميلودي أفلام" عن الشيخ الكتاتني المغربي والشيخة خديجة المغربية، اللذين يعالجان كل شيء بالسحر، فيردّان المطلقة ويعيدان الحبيب ويشفيان من الوسواس القهري! هذان الاسمان اللذان قبضت عليها وزارة الداخلية أخيرا، واتضح لها أنها عصابة، فلا يوجد لا كتاتني مغربي ولا خديجة مغربية، إنما هى عصابة تتربح وكسبت الآلاف من أثر الإعلان والمتصلين.

ربطت برامج التوك شو بين عملية النصب الكبرى التي أدارتها عصابة باسم شخصيات مغربية، وبين ما يحدث للأشجار، مما جعل من يصدقون ذلك يزدادون. لا بد من أنهم يسألون أنفسهم لماذا حقا لا تكون هناك عملية نصب كبرى في المسألة؟!

كنت طبعا غير مقتنع بكل ما قيل. لقد شاهدت بنفسي الشجرة في سوهاج وهي تئن، كما سمعت صوت طرقعة جذورها وهي تنعتق من تحت الأرض وتسقط . صحيح أني لم أرَ أي شجرة أخرى، ولم أر أعمدة أخرى قد غادرت من مكانها، لكن ما رأيته يجعلني مقتنعا بأن ما يحدث ليس وراءه عصابة، ولا عملية نصب كبرى، وأصدق حامد شحاتة فيما قاله عن عادل متّى الذي مشى ساحبا العمود. بيان وزارة الداخلية اعتبرته محاولة لتهدئة الناس، حتى تستطيع أن تقبض على من يروِّجون لما يحدث باعتباره انتقاما إلهيا. توقعت أن يتم القبض على الكثيرين ممن شغل الموضوع صفحاتهم على فيسبوك، وربما أنا الذي قلت إنني من كان يصلي فوق العمود. لكن أمام نجوان كنت أقول شيئا آخر. كنت موافقا أمامها على بيان وزارة الداخلية. كان خوفي على نجوان كبيرا من تكرار اتصال طارق بها. لقد اتصل بها من جديد

وصارت شاحبة لا تأكل، في عينيها حيرة دائمة، وأخاف عليها من السقوط إعياء وألما. لكن نجوان خرجت اليوم من مدرستها ومعها نهاوند، وأخذت طريقها إلى دار نشر "فُل وورد" لمقابلة حامد شحاتة الذي سبق وأخبرَته بالموبايل وكان ينتظرها. حدثتني في الصحيفة وأخبرتني، فقررت أن ألحق بها. لم أقل لها ذلك. خفت أن يتم القبض على حامد وهي هناك ومعها نهاوند فيُقبَضُ عليها أيضا.

وجدتني نجوان أصعد السلم خلفها. اندهشت ثم ضحكت وهي تقول "رعبتني". ما إن فتح حامد لنا الباب ودخلنا حتى ابتسم وهو يقول:

- أنا طبعا غير مندهش من حضوركما. دهشتي من جرأتكما الآن. أنا مُعرَّض للقبض علي في أي لحظة، ولا أحب أن يحدث ذلك وأنتما هنا.

صمتنا قليلا، ونجوان تحتضن نهاوند أمام ساقيها وتحيطها بيديها. سألَنا حامد:

- هل تحبان أن أطلب طعاما؟ لقد أتيتما من العمل إلى هنا.

- لا. لست جائعة.

أجابت نجوان، وكذلك أجبت أنا.

- إذن ماذا يضايقكما؟

قلت:

- لا شيء يضايقني، لكني عرفت بقدوم نجوان فخفتُ عليها. لا أعرف ماذا يضايق نجوان.

سكتت نجوان قليلا، ثم قالت:

- في لحظة فكرت أنكما لا تقولان الحقيقة، ولا أحد على فيسبوك. وأنه لا شجرة خرجت من مكانها، لا في الصعيد ولا في القاهرة. كذلك لم تطر الأعمدة من مكانها. وأن الرجل والد سامح بكير

الذي قال لي إنه رأي رسوم الجرافيتي كان أيضا يحلم . أنا مرتبكة جدا. الحقيقة الوحيدة التي أعرفها هي أن طارق يتصل بي، ويحدثني على الموبايل، بعد أكثر من ست سنوات من وفاته.

صرت أنظر إليها غير مصدق، فاستطردت:

- وكدت أعود وأنا أصعد السلم إلى هنا، لأنكما بالفعل لن تقولا الحقيقة.

تبادلت النظر مع حامد في حيرة فقال:

- نجوان. تعرفين أني أحبك، وكنت أحب طارق ونادين، وما زلت أحب نور لأنه لم يتخلَّ عنكِ. لا يوجد سبب واحد يجعل نور يكذب عليكِ، ولا أنا طبعا. مصر الآن فعلا تشهد أحداثا غريبة، أقل ما يقال عنها إنها سحرية. من الذي يفعل ذلك؟ لا أحد يعرف.

- يعني أنت تؤكد أن هذا حقيقي. إذن تتصور أن هناك من يفعل ذلك فعلا. ولا تؤمن أنه انتقام من اللّٰه.

ابتسم حامد، وقال:

- تعرفين رأيي في مسألة انتقام القدر هذه. نحن الذين كان علينا أن ننتقم. لقد هُزمنا حين تفرقنا. حين تركنا أمرنا للمجلس العسكري مرة، وللإخوان المسلمين مرة. لم نستطع أن نتفق على فريق يقود الثورة.

- هل ترى أن للحكومة دورا فيما يحدث؟

ضحك حامد، وقال:

- الحكومة لن تضر نفسها.

- طيب لماذا تسكت الحكومة على ما يحدث؟

- من قال لك إنها ساكتة. لقد قرأتِ، بالتأكيد، بيان وزارة الداخلية أو سمعتِه في الفضائيات أمس.

- لم أصدقه طبعا.

- ولا أنا. هل تعرفين لماذا؟

- لماذا؟

- لأن شبابا من كل المحافظات يرسلون لي رسائل عن الجرافيتي الذي يظهر ويختفي في محافظاتهم وقراهم. الرسائل كلها هنا على فيسبوك وعلى الموبايل نفسه، وبعضها على الإيميل.

قالت نجوان لحامد:

- إذن عليك أن تؤمن أنه انتقام من الله.

هنا أحسست أن سكوتي قد طال. الحقيقة كنت مندهشا من أسئلة نجوان، وأفكر هل جاءت هنا لأنها ترى أن الطريق صار مغلقا معي؟ وإذا كان ذلك، فلماذا أخبرتني أنها ستأتي إلى حامد؟ هل تصورت أني لن أقلق عليها ومن ثم لن ألحق بها؟ قلت:

- علينا أن نؤمن بذلك حتى نستريح. ليس أمامنا غير ذلك، لكني أخشى ألا تؤمن الدولة بذلك وتقبض على أبرياء كثيرين. أجل. لذلك لم أكن أحب أن تأتي إلى هنا اليوم يا نجوان. لم أقل لك ذلك حين أخبرتني، لأني أتصور أن هواتفنا كلها تحت المراقبة منذ أن قُبض علينا أمس، ولم أشأ أن أنقل لهم خوفي.

وسكتنا لحظات، حتى قال حامد باسما:

- أنت أيضا كتبت بوست أخبرت به وزارة الداخلية بأنك الذي كنت تصلي فوق العمود بالميدان.

- لا تقلق عليّ.

قلت له ذلك وأنا أنظر إلى نجوان التي قالت:

- نسيت أن أسألك حقا لماذا كتبت ذلك؟

لم أرد. فكرت أنها لم تقلق مما كتبت لدرجة أنها نسيت أن تسألني. إذن هي حقا مشغولة بالرعب العام. وربما هي قوية. لكن حامد أخذنا إلى كلام آخر وسألها:

- هل تابعتِ الرسائل والتعليقات الخاصة باللجان الإلكترونية للنظام؟ كلهم يرددون بيان وزارة الداخلية، وكلهم يهددون من بقي من الثوار.

سكتنا من جديد، فقال حامد:

- ما رأيكما أن نخرج من هنا الآن، نتغدى في مقهى ريش أو مطعم الجمهورية، أو حتى عند القزاز.

قلت ضاحكا:

- يا ريت ناكل كشري عند أبو طارق.

- إشمعنى؟

- يعني نفتكر أيام الميدان.

ضحك حامد، وقال:

- أنا كنت آكل كشري عند "توم آند بصل" أحسن من أبو طارق بتاعكم.

- فليكن. نأكل عند "توم آند بصل".

قلت، فقال حامد:

- إذن هيا بسرعة. قلبي يحدثني أنهم سيصلون للقبض عليّ بعد لحظات. أجل. لم يعودوا يعتقلون الشباب في الفجر. في أي وقت يعتقلونهم الآن.

وأشار لنا أن نمضي أمامه، لكنا سمعنا ضجة على السلم في الدور الأسفل. همس حامد:

- بسرعة اصعدوا إلى الدور الأعلى. لقد وصلوا.

وقفت حائرا، ونجوان اشتعل وجهها من القلق، فهتف حامد هامسا:

- بسرعة. سأنزل أنا إليهم. انجُ بزوجتك وبنتك.

صعدت بسرعة أحمل نهاوند وأمامي نجوان لعدة درجات، بينما نزل حامد عدة درجات وسمعته يقول:

- أنا قادم لكم بنفسي. أعرف أنكم ستتهمونني بسرقة العمود. والله مصر بقت مسخرة أوي!

سمعت الضابط:

- خذوه واصعدوا وافتحوا دار النشر فتشوها.

صعدت دورا ثانيا ووقفت حائرا مع نجوان. كيف تركت حامد حقا؟ من يغفر لي ذلك؟

أحسست بباب الشقة المجاور لنا ينفتح من الداخل ثم يُغلَق، فصعدنا دورا أعلى، ثم قررنا أن نصعد إلى السطح حتى نتفادى أن يطل أحد من أي شقة ويرانا. كنت أحمل نهاوند وأصعد بسرعة ونجوان أمامي، ولا أدري كيف صارت قوية لتفعل ذلك في لحظات.

لم يطل بنا الوقت. حاولت نجوان أن تصل إلى سور السطح، وتطل منه على الشارع لترى حامد وهو مقبوض عليه ويضعونه في عربة الترحيلات. خشيت أن يرى أحد من الشارع وجهها، فمنعتها. ظللنا في منتصف السطح أكثر من عشر دقائق نتمنى فيها شيئا واحدا، هو ألا تبكي نهاوند أو تصرخ لأي سبب. ثم نزلنا على مهل فلم نقابل أحدا على السلم. لم يظهر وجه واحد من السكان حتى من خلف أي باب يستطلع ما يحدث. لقد نجح النظام أن يصيب الناس بالرعب. تذكرت أيام التحرير. كيف كانت الشقق كلها مفتوحة للثوار، وسكانها يقدمون إليهم الطعام وأماكن النوم والأغطية الصوفية التي تقيهم من البرد. كم شقة دخلناها هنا مع أصدقائنا ولم يحدث من قبل أن تعرفنا على أحد من سكانها؟

تركنا العمارة ودموع نجوان على خديها. أسرعنا في شارع محمد

محمود. نريد أن نجلس في أقرب مكان ونكتب على فيسبوك ما جرى. ليس أمامنا إلا مقهى الحرية. هناك أيضا يجلس بعض المحامين الشباب من المنظمات الحقوقية. لا بد من إنقاذ حامد في أسرع وقت.

اخترقنا شارع منصور بسرعة لنصل منه إلى شارع التحرير، لنعبره إلى مقهى الحرية أمامنا بشارع الفلكي. توقفنا في شارع التحرير. رأينا حملة أمنية كبيرة أمام مقهى الحرية ومقهى سوق الحميدية ومقهى الندوة الثقافية، والمقاهي في كل ناحية. يغلقون المقاهي ويخرج كل من فيها بسرعة. ماذا سنفعل الآن؟ لا بد أن نكتب ما يحدث على فيسبوك بسرعة. إنهم يغلقون كل المقاهي في وسط البلد . هل يتم ذلك من أجل القبض على حامد؟ لا بد أن هناك شيئا آخر، لكن لا بد أن نجد مقهى ما مفتوحا.

ابتعدت عن نجوان قليلا لأشتري علبة سجائر. وأنا أقف أمام البائع نظرت خلفي إلى نجوان التي صارت تمسك بيد نهاوند. كانت سيدة منتقبة تمر من جوارها، ضربتها في كتفها كأنها اصطدمت بها عفوا. هتفت فيها نجوان "مش تحاسبي؟" لكن رجلا من الناحية الأخرى اصطدم بها أيضا، فتركت من الصدمة يد نهاوند وصرخت فيه: "يا وسخ يا سافل"، فجريت إلى الرجل الذي جرى أمامي، لكن كان موتوسيكل قد توقف يقوده شاب ملثم، ونزل منه شاب ملثم آخر حمل نهاوند بسرعة وقفز إلى الموتوسيكل، فصرخت نجوان: "بنتي"، وقذفت الشاب بالموبايل الذي كان في يدها، وجرت خلفه، لكنها وقعت على الأرض. جريت أنا أيضا إليه. صار الموتوسيكل يندفع في شارع التحرير إلى عابدين، أو ربما لينعطف إلى شارع نوبار ليختفي، وأنا أجري خلفه وأصرخ: "حرامي"، ولا أحد يعترضه. لكن سيارة شرطة كانت تقطع الشارع في الاتجاه المعاكس بسرعة. توقف قائد الموتوسيكل وكاد ينقلب به لكنه تماسك بتوازنه، وألقى الشاب الذي خلفه بنهاوند التي يحملها إلى الأرض، ثم انطلق الأول يحاول أن ينحرف بعيدا عن سيارة الشرطة، لكنها اصطدمت

بالموتوسيكل. انقلب الموتوسيكل بهما وتوقفت السيارة. كانت الصدمة قوية. تمدد الشابان على الأرض والدم ينزل منهما معا. شاهدت امرأة تندفع من الرصيف تمسك بنهاوند فجريت إليها. رأيت المرأة تضع نهاوند على صدرها وتربِّت على ظهرها. مددت يدي آخذ نهاوند، ونجوان لحقت بي تقف معي متألمة مما أصابها حين وقعت، فهتفت المرأة:

- لماذا تريدانها؟ لقد طارت من فوق الموتوسيكل والشابان فيما يبدو قد ماتا. هي ابنة أحدهما لا بد.

- هي بنتي وهما خطفاها مني. نريد أن نتأكد أنها بخير.

قالت نجوان ذلك وهي تبكي وتتألم. كانت المرأة التي تحمل نهاوند جميلة، ترتدي فستانا رائعا على عكس ما هو حادث في الأزياء. ذراعاها عاريتان ورائحة بارفانها حولها.

هتفت المرأة للناس:

- يا جماعة الست دي بتقول إن البنت بنتها، وأنا شايفة الولد حطها على الأرض من الموتوسيكل. أكيد كان خايف عليها تموت.

تجمع الناس حولنا فقلت منفعلا:

- هي ابنتنا. أريد أن تأخذها زوجتي تطمئن عليها في أقرب مستشفى، حتى أقف مع الشرطة وأبلغهم أن ضحايا الحادثة لصّان سرقا ابنتنا.

وكانت الشرطة التي توقفت سيارتها قد حملت الشابين المصابين إلى الرصيف. والناس يصرخون في رجال الشرطة "تمشون عكس الاتجاه وتقتلون الناس! لماذا؟ لماذا؟"

كان الغضب شديدا، وكان معظم عناصر الشرطة قد اختفوا، باستثناء ضابط شاب وقف حائرا لا يتكلم. كان واضحا أنه مرتبك بحق مما حدث ومن تجمع الناس. وكانت نجوان تصرخ للسيدة والناس "أعطيني بنتي. أعطوني بنتي" والسيدة ومن حولها يقولون "استني لما نعرف هي بنت مين".

كان الموقف محيرا لنا جدا. ابنتنا فاقدة الوعي نريد أن نطمئن عليها، والسيدة التي لم تر ابنتنا مع نجوان من قبل لا تصدق أنها ابنتنا، والناس أيضا يفعلون مثلها، وأنا أريد أن أنهي الموقف لأذهب إلى قسم الشرطة أشكو الشابين المصابين، حتى لو ماتا فلا بد أن وراءهما عصابة كبيرة، إما للشحاذة بالأطفال، وإما لبيع الأعضاء البشرية.

تماسكت وقلت للسيدة بهدوء كاتما غضبي :

- يا مدام، أنا نور قنديل صحفي في جريدة الأخبار، وهذه نجوان زوجتي، ثيابها متسخة بعد أن سُحِلَت على الأرض وهي تحاول اللحاق بالموتوسيكل، وادعي لها ألا تكون مصابة في عظامها. وهذا أيضا كارنيه نقابة الصحفيين الخاص بي. التي تحملينها على صدرك الآن هي ابنتنا ونشكرك جدا. أعطيها لنا لنذهب بها إلى المستشفى نطمئن عليها وعلى زوجتي، ولنحرر محضرا ضد الشابين اللصين اللذين خطفاها. لو سمحتِ.

ترددت المرأة لحظة ثم مدت يديها تحملان نهاوند لي، فتناولتها إلى صدري ولاحظت أنها فتحت عينيها، فقبلتها فرحا وهتفت لنجوان:

- نهاوند بخير. لقد نجت بمعجزة.

لكنها كانت أسرعت إلى الضابط الشاب، وأنا خلفها، وصرخت:

- هل ماتا؟

قال الضابط:

- واحد مات والتاني مصاب وطلبنا الإسعاف. هل تعرفينهما؟

- أجل. لصّان خطفا ابنتي التي طارت بعيدا، والتي مع زوجي الآن.

وأشارت إلى مكان الخطف. واكتشفت أن الموبايل لم يعد معها، وأنها قذفت به أحد الشابين، فقالت لي:

- سأبحث عن الموبايل. ابقَ مع الضابط حتى نحرر المحضر.

قلت أنا للضابط:

- ليس مهما حتى لو قتلتم هذين اللصين أولاد الكلب. أريد أن أحرر محضرا لأنه لا بد أن هناك عصابة كبيرة وراءهما.

كان الضابط واقفا لا يتكلم. لا أحد يعرف فيم يفكر. جاء صوت الإسعاف من الناحية الأخرى من شارع البستان. ستدور إلينا وتحمل الشابين. كان بين الناس أكثر من شاب يصرخ "لا بد من عمل محضر لعربة الشرطة. لن نترك حق الشابين".

كانت نجوان التي تركتني أقف مع الضابط لا تزال تمشي تنظر إلى الأرض باحثة، علها تجد الموبايل الذي قذفت به الشابين. كانت نهاوند قد عادت إلى وعيها أكثر، فرأت نجوان قريبة فهتفت لأول مرة "ماما". ومدت يديها إليها.

ورآها شاب تعود تحمل عني نهاوند التي فتحت لها ذراعيها، فقال:

- أول مرة الشرطة تجيب حق حد.

وقال آخر:

- وبالغلط كمان.

ضحك المتجمعون وقال لي الضابط:

- يمكن أن تأتي إلى قسم عابدين، تحرر محضر خطف للشابين في أي وقت اليوم. اطمئن على ابنتك أولا.

تقدمت ومعي نجوان إلى مقهى قريب أعرفه في مدخل عمارة مقابلة لمكتبة الكيلاني. كان لا بد أن نجلس نرتاح وتغسل نجوان وجهها ووجه نهاوند. وكنت أفكر حائرا فيما حدث وكيف فاق أفلام الرعب. ما هذه الأحداث كلها في دقائق؟ لكنا رأينا عددا كبيرا من الشباب والرجال والنساء قادمين في سرعة من ناحية

شـارع الشـيخ ريحـان. كـان المنظـر مثيـرا جـدا، فظننـت أن هنـاك مظاهرة يطاردها البوليس، وقلت في نفسي: ما الذي يحدث في هذا اليوم الأغبر! لكن امرأة هتفت:

- لا أحد يذهب إلى شارع الشيخ ريحان الآن. الأشجار كلها هناك تنخلع وتطير في الفضاء. البلد بتقع!

ارتفعت الأنظار، فكانت هناك أشجار تعبر تحت السماء إلى كل اتجـاه، وارتفعـت سـارينات السـيارات وخـرج بعض من فيـها أو ركنوها إلى الرصيف ووقفوا تحت بلكونات العمارات، بينما وقف آخرون جوارها ينظرون إلى السماء. ارتفعت أصوات أذان من المساجد البعيدة والقريبة تصل إلينا، وامتلأت الشرفات بنساء ورجال وأطفال يدخلون ويعودون بسرعة، ولا أحد يعرف هل يضحكون أم يصرخون. مندهشون أم مرعوبون. كانت نجوان قد دخلـت إلـى المقهى وجلسـت صامتة تقبِّل نهاوند ولا تكف عن البكاء. أحسست بنفسي بعيدا عنها جدا. أسرعت إليها وجلست جوارها أُربِّت على ظهرها وهي في صدري ونجوان على ركبتيها. كنا فقط الجالسين بالمقهى. كان كل من فيها حتى عمالها يقفون في الشارع يتطلعون إلى السماء. قلت لها:

- لا تبكي يا نجوان. الآن ترين ما رأيته أنا من قبل.

أنشجت أكثر بالبكاء، وقالت:

-هل تسمع ما أسمعه؟

فكرت مرعوبا أنها ستقول لي إنها تسمع صوت طارق في الفضاء. هززت رأسي، فقالت من بين دموعها:

- الجميع ينظرون إلى السماء، وأنا وحدي أسمع الموسيقى تأتي منها.

لم أجد شيئا أقوله، غير أن أضمها إلى صدري أكثر وأمسك بيديها أقبلهما، وهي تقول:

- موسيقى فيلم قديم شاهدته مع طارق وعدد من الأصدقاء، في

51%

نادي السينما بقاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية. وأتذكره الآن. إنه فيلم "آخر الموهيكيين".

أصابني الصمت أكثر. لقد كنت معهما أنا ونادين بين أصدقائهما وإن نسيت. إنه فيلم لا أنساه.

"The Last of the Mohicanz"

لكن كيف لا تتذكر أني كنت معهما. اضطرب قلبي خوفا أن يدق هاتفها النقال، تذكرت أنه ضاع منها وسط الزحام والفوضى التي جرت، وأنها لم تجده وأنني لم أفكر مثلها في البحث عنه. أبعدت يدي عنها وأخرجت هاتفي. طلبت رقمها فجاءني الرد أنه مغلق وغير متاح. لقد هرب به اللص الذي وجده وأغلقه. ابتسمت ساخرا. ماذا يعني لنا هاتف وسط ما جرى من أحداث! لص للهواتف ولصوص أطفال وحملة أمنية على المقاهي تطارد شباب فيسبوك! كل ذلك فيكِ يا مصر الآن، فلماذا تبقى الأشجار؟ ثم سمعت صرخات الناس في الشارع وهي تعلن أن غضب الله حط على البلاد، فالأشجار تطير واقفة.

نصف ساعة تقريبا وعادت الحياة في الشارع إلى طبيعتها. قلت لها:

- آن الأوان أن نذهب إلى قسم البوليس نحرر محضرا في الشابين اللذين حاولا خطف نهاوند.

هزت رأسها في يأس، وقالت:

- لا فائدة في أي شيء. عد بنا إلى البيت!

أخذنا تاكسي وجلسنا صامتين. وصلنا إلى المنزل وصعدنا إلى شقتنا. ما إن دخلنا حتى اندفعتْ إلى حجرة النوم. دخلتُ وراءها ونهاوند في يدي. نظرت إليّ وهي ممددة فوق السرير بثيابها، وقالت في ألم:

- صوت الناي كان يلازمني طول الطريق ولا يزال، ونشيج الهنود الحمر لا يتوقف.

كانت دموعها هي التي لا تتوقف.

#سـجنوا_حامد_وبيلخمونا_بالشجر لا تصـدقوا مـا يحـدث. هـو أصلا لا يحدث. حامد فين؟

#سجنوا_حامد_وبيلخمونا_بالشجر يظهر أن مجلس إدارة العالم دا صحيح بس لحساب الدولة المصرية وبيتوّه الشعب.

#سجنوا_حامد_وبيلخمونا_بالشجر وضعوا فوق أسطح العمارات مرايات بتعكس مناظر غير اللي حوالينا بتخلينا نشوف حاجات مابتحصلش.

#سجنوا_حامد_وبيلخمونا_بالشجر إشمعنى شجر شارع الشيخ ريحان طار يوم ما خطفوا حامد؟

كانت نجوان تتابع الهاشتاج في موبايلها الجديد، بعد أن أقامت لنفسها صفحة على تويتر. كنت أتحرك في الصالة ذاهبا آيبا أكثر من مرة، فابتسمت وقالت هي:

- ارسي لك في مكان. لخمتني.

ضحكتُ وقلت:

- هو أنا باعمل إيه؟

ضحكت وقالت:

- رايح جاي كمن ضاع منه شيء.

جلست جوارها، وقلت:

- أريد أن أعترف لك بأمر.

هزت كتفها مبتسمة فقلت:

- تقريبا أنا السبب فيما جرى للأشجار في مصر.

ضحكت بقوة ثم قالت:

- كيف؟ هل أنت رئيس مجلس إدارة العالم ولا أعرف؟

قلت:

- لا. أنا الذي يدير حرب الجيل الرابع!

انطلقنا نضحك وشعوري بالسعادة يزداد لضحكها، ثم سكتنا لحظات، وقلت:

- قبل أن أذهب إلى سوهاج والأقصر، كنت كتبت قصيدة لم أقرأها عليكِ. بعد أن كتبتها اضطرب قلبي قليلا، وشعرت أن ما كتبته قد يحدث.

- هل أنا أعيش مع الشيخ الكتاتني المغربي ولا أعرف؟ إذن أنا خديجة المغربية!

- صدقيني أنا أشعر بالذنب.

نظرت إليّ في دهشة شديدة، وسألتني:

- أي ذنب؟ وماذا كتبت؟ ومنذ متى ما يكتبه الشعراء يتحقق؟ الشعراء منذ آلاف السنين يتمنون عالما أفضل، ولا يتحقق هذا العالم أبدا!

- لكنهم أحيانا يحذرون من مصائب وتقع. أمل دنقل مثلا حذر من صيف صعب، وحدثت هزيمة يونيو عام سبعة وستين.

- نور. أنا عشت أسمع هذا الكلام. الحقيقة هزيمة سبعة وستين كانت لأن عبد الناصر كان حاكما عسكريا وأطاح بالديمقراطية. الديكتاتورية لا تأتي إلا بالخراب. هل نسيت لماذا قمنا بثورتنا؟

- لم أنسَ. لكن...

- تريدني أن أسمع القصيدة. سأستمع. لكن ألسنا مُقَصِّرين في حق حامد؟

- ماذا كان يمكن أن نفعل؟ كتبنا ما حدث له في اليوم نفسه. ذهب المحامون يبحثون عنه في قسم بوليس عابدين فلم يجدوه، لا

في عابدين ولا في غيره. حامد مختفٍ قسريا ولا نستطيع أن نفعل غير الضجة حوله في فيسبوك وتويتر. لم نعد نملك شيئا. حتى الصحف لا تنشر شيئا عنه. الصحف الأجنبية تنقل ما نكتبه من تويتر وفيسبوك وتساعدنا.

- لا وزارة الثقافة تحركت، ولا اتحاد الكتاب، ولا اتحاد الناشرين.

- تعرفين أن حامد كان بوهيميا. لم يشترك في اتحاد الكتاب رغم أنه نشر بعض القصص، ولم يشترك في اتحاد الناشرين رغم أنه ناشر، ووزارة الثقافة في خبر كان من زمان.

- لكنه مثقف يا نور!

- أين هم المثقفون؟ اليسار يجتمع كل أسبوع في مسجد عمر مكرم لتشييع واحد من أعلامه. واليمين حالِف يمين ما يسيب النظام أبدا! الرعب أن يموت حامد تحت التعذيب. لقد تقدم المحامون بشكوى للنائب العام لمعرفة مكانه، ولم تتحرك حتى الآن رغم مضي شهر.

خيم الصمت علينا. وقفتُ وفكرتُ أن أدخل غرفة المكتب وأعود باللاب توب، وأجلس جوارها أقرأ لها قصيدتي من على الديسك توب. لكني اتجهت إلى غرفة النوم.

تمددت فوق السرير وقلت لنفسي: إلى متى أخفي عنها أسراري؟ أسبوع الآن وهي تعرف أني في "الشيفت" الليلي للجريدة. لكنها لا تعلم أني كل ليلة أترك الجريدة عند الفجر وأذهب إلى شارع محمد محمود، ثم أتركه إلى شارع صبري أبو علم وشارع يوسف الجندي. أجد على جدار بطريركية الأرمن الكاثوليك الجرافيتي القديم الذي أخفوه بالدهان. من بينه كانت تطل صورة نادين. من الذي رسمها وهي ترسم بفرشاتها أمامها على الحائط. لا بد أنه "محب". الولد الريفي الذي كان في السنة النهائية معها، وأعلن لها عن حبه لها لكنها صارحته ضاحكة بأنها تحبني. حاول كثيرا الاقتراب منا كصديق، ولم تكن نادين تتضايق منه، لكنها كانت دائما تضحك. كنتُ أنا أقول له إن لدينا موعدا مع بعض الأصدقاء

وأعتذر عن عدم الاستمرار معه. ظل عاما كاملا يقابلنا صدفة معا في الطريق فيولي وجهه ناحية أخرى ويمضي. كنت أقول لها ضاحكا إنه مثل "العفريت" يظهر لنا بلا موعد. تضحك وتقول إنه مسكين. كنت في الأيام التالية للثورة، وطوال العام الأول قبل أن يداروا الرسوم بالدهان الغبي، كثيرا ما أنظر إليها على الحائط. بل كثيرا ما آتي لأطل عليها. لم ألتقِ بمحب بعد ذلك أبدا حتى قرأت اسمه في شهداء أحداث محمد محمود الثانية. لن يصدقني أحد إذا قلت إني بكيت من أجله، ثم قلت له هنيئا لك يا محب؛ سترى نادين قبلي هذه المرة!

كنت، والوقت يقترب من الفجر، أرى الرسوم قد ظهرت على جدار الجامعة الأمريكية. وأعداد قليلة من الرجال والنساء تظهر من الشوارع الجانبية، بين محمد محمود وشارع التحرير، تأتي لتطل على الصور وتمضي. لا تقف طويلا. وأسمع من بينها همسات: "اتفرجوا بسرعة. وزارة الداخلية مراقبة المكان وممكن ييجوا يقبضوا علينا". وكل ليلة أتركهم إلى شارع صبري أبو علم وشارع يوسف الجندي، لأتفرج بسرعة على الرسوم التي تظهر، وأُطِلُّ على نادين. أطيل الوقوف غير مهتم بما يمكن أن يحدث. أرى شفتي نادين تتسعان بالابتسام. أراها تكاد تخرج وتسقط في حضني. مع أول أضواء الفجر تبدأ الرسوم في الشفافية. شيئا فشيئا ستختفي. أمد يدي أحاول أن أمسك بنادين، لكن كل شيء يعود إلى ما كان عليه. جدران باهتة ألوانها بلا حركة. أسرع إلى جدار الجامعة الأمريكية فلا أجد رسما واحدا عليه، ولا أرى أحدا إلا امرأة تنصرف ودموعها ظاهرة لي، وتقول بصوت خفيض أعرف كلماته من حركة شفتيها: "مع السلامة يا عزيز عيني. أنا جاية بكرة". أمضي إلى جامع عمر مكرم، أستمع فيه إلى أذان الفجر وأصلي مع المصلين. كثيرا ما أفكر أن أتلفت حولي، لكني أخاف أن أرى نفسي وحدي لا مصلين في الجامع معي ولا شيخ يؤمنا. أو أجد نفسي بين الشهداء الذين رأيت وجوههم على الجدران. هل يمكن أن أخبر نجوان بهذا كله؟ هل ستصدقني؟ ليست المشكلة أنها لن تصدقني. ستظن أنه قد أصابني مسٌّ من الجن، أو أنني أحتاج إلى علاج نفسي. تماما كما ظننت أنا عنها في

البداية.

لقد أخبرتهم اليوم في الصحيفة أني أريد أن يكون عملي دائما بالليل. وأنتظر الشتاء لأكون وحدي في الشوارع والطرقات.

ملت على السرير أنام على جانبي. مددت يدي إلى علبة سجائري فوق الكومودينو القريب واعتدلت ثم أشعلت سيجارة. تذكرت القصيدة فقلت لنفسي ليس الوقت وقتها. لا يمكن أن أكون سببا فيما أراه أو فيما يحدث في البلاد.

اليوم راحتي من العمل. أحتاج لراحة أكثر من يوم. لا أصدق ما جري لي ولن يصدقه أحد . يبدو مثل حلم علىّ ان احتفظ به كسِرٍّ إلهي . المرأة التي رأيتها أمس أمام الرسوم كانت غير كل النساء. لقد أخذتني لنمشي على كوبري قصر النيل وحدنا عند الفجر. لقد انصرف الجميع وكانوا قليلين كالعادة إلا هي كانت تنظر إليّ. اقتربت مني وأخرجت من حقيبتها السوداء زجاجة صغيرة، وقالت:

- عسل نحل جبلي لا يعرفه أحد!

- أشكركِ، أنا لست جائعا.

- لا يأكله الجوعى.

وأخرجت من حقيبتها ملعقة معدنية صغيرة، وقالت:

- انتظر.

وبينما أبتسم، فتحت غطاء الزجاجة الصغيرة ثم قلَّبت العسل بداخلها بالملعقة الصغيرة، وأخرجتها ممتلئة وقدمتها لي قائلة:

- كُلها. ستعيش مئة عام، وسيعود إليك كل ما ضاع منك، ولن يصيبك أي مرض، ولن تضعف ذاكرتك، فلن تنساني.

لا أعرف كيف لم أقاوم. كيف لم أتحدث. فتحت فمي ووضعت هي فيه الملعقة وضممت شفتي عليها أمتصُ كل ما فيها ثم سحبتها ومسحتها بمنديل كلينيكس وأعادتها إلى حقيبتها ومعها

الزجاجة. قلت لها:

- ألن تتذوقيه معي؟

قالت:

- أنا الشهد نفسه فكيف أسعي إلى شهد غريب!

وأخذتني من ذراعي ومشينا. عبرنا كوبري قصر النيل على مهل. بخر أبيض يرتفع من النيل الساكن. لا أحد يقابلنا أو نقابله. لا أعرف إلى أين ستذهب بي. وقفتْ قبل نهاية الكوبري ومالت على إفريز الرصيف، ثم قالت:

- قف معي قليلا. قبل أن يملأ النور الدنيا لا بد أن أتركك.

- لكني لم أعرفك بعد.

ضحكت وقالت:

- إلى هذه الدرجة تنسون يا شباب. على أي حال لقد شربت من عسلي ولن تنساني بعد اليوم.

- أريد أن أعرف من أنت؟ هل مات ابنك في أحداث الثورة؟

- لا تقل موتى. قل شهداء.

- معذرة.

- ثم إنني أصغر من أن يكون لي ابن شاب. أإلى هذا الحد لا ترى؟

- معذرة. الثياب السوداء تعطيك سنا أكبر.

- ستكون بيضاء بعد قليل.

نظرت إليها متحيرا، فقالت:

- هل ماتت نادين؟ إذا كانت قد ماتت فلماذا تظهر لك في الطرقات وتحدثك في الهاتف؟

سكت مذهولا. ثم سألتها هامسا:

- هل تعرفينها؟

- من لا يعرفها؟ كل الشهداء أحتفظ بهم في مكان أمين؟

- أرجوكِ. حلّي لي هذا اللغز في كلامك. قولي لي من أنتِ وماذا تعنين بكلامك هذا؟

ابتسمت وقالت:

- أنا امرأة مثل كل النساء. أشتهي الرجال لكني أحافظ على زوجي. يتصور أنه يحبسني في البيت. كل ليلة أتركه يشخر على سريره وآتي هنا. أعود كما جئت. لا أفتح الطريق لأي رجل. فقط أنتصر عليه هو إذ يتصور أني نائمة جواره.

ظللت صامتا، فاستطردت:

- حتى لو استيقظ سيجدني جوراه بينما أنا معك. أنتم الرجال حمقى. تشتهون النساء وتحلمون بهن ولا تتصورون أننا نفعل ذلك مع الرجال. ومثلما تخرجون من الحلم إلى الحقيقة نفعل نحن، وكما لا ندري بكم لا تدرون بنا، لكني لم أفعل حتى الآن غير الاشتهاء. لا أريد غير الاشتهاء.

نظرت إلى عينيها الجميلتين، وإلى ثيابها التي كانت سوداء فصارت بيضاء.

لكنها قالت:

- لقد أطلت النظر إليّ، فهل تذكرتني؟

لم أجد ردا، فقالت:

- مفعول العسل تأخر لكن لا تقلق سيعمل.

فتحت عيني إلى آخرهما أحاول أن أبتلعها داخلهما. قلت وقد شملتني الدهشة:

- قلتِ إنه يشخر جوارك. يا إلهي لقد تذكرتك الآن. أنت المرأة

التي لامتني في "الزاوية الحمرا". أجل. لقد تذكرتك.

قالت ضاحكة:

- رغم أن كل الرجال يشخرون جوار زوجاتهم، قد تحرك مفعول العسل في روحك. سأقابلك غدا وأصحبك إلى البيت الذي أخبئ فيه الشهداء. أجل. لم يمت أحد كما يتصور أعداء الثورة. سأخرجهم من الغرفة التي أحتفظ بهم فيها وسيملأون الشوارع نارا على أعدائهم. أنا وحدي أستطيع أن أفعل ذلك. انتظر اللحظة المناسبة. ولا يضايقك أني صرخت فيك حين رأيتك أول مرة في شارعنا. كنت أرى ما لا يراه أحد. كنت أشعر أني أتغير وأصير خفيفة كالريح. أن روحي تشف وجسدي يتلاشى.

وقفت لا أتحدث ولا أصدق ما أسمعه. قالت:

- فقدت أخي وحبيبي، فرأيتهم كلهم في أحلامي يحيطون بي ويذهبون معي إلى حيث أخفيتهم. لا تقل عني مجنونة. أنا آتي هنا كل ليلة آنسُ بهم، وسأجعلك تراهم غدا أو بعد غد. المهم ألا تتأخر عن موعدك قبل الفجر كل يوم. دعني أقبِّلك بسرعة الآن.

قبل أن أتقدم بشفتي إليها تقدمت هي وقبلتني، فتركت عسل كل الجبال على شفتي واختفت من أمامي.

كل ذلك تذكرته وأنا أدخن السيجارة التي اكتشفت أنني أنهيتها دون أن أشعر بها. كل ما قلته رأيته حقيقة، وليس هناك معني لأي حديث عن القصيدة. لكني رأيت نجوان تدخل مسرعة وتقول:

- الحقْ يا نور.

نظرت إليها مندهشا. هل تكون سمعت ما فكرت فيه؟ استطردتْ:

- كل أشجار حديقة أنطونيادس في الإسكندرية طارت في الفضاء، والدنيا مقلوبة في الإنترنت.

رأيت المرأة التي رأيتها من قبل في الزاوية الحمرا، والتي صحبتني إلى كوبري قصر النيل، وقد ملأ وجهها الغرفة وتضحك

ملء شدقيها.

لم تجد مني نجوان أي رد فعل لما قالته، فقالت:

- مالك؟ تحرك . هات اللاب توب وتعالَ اجلس معي في الصالة نتابع ما يكتب، ونتفرج على التليفزيون ربما يتحدثون عن ذلك.

وتركتني وخرجت. لكني عدت وتمددت فوق السرير من جديد. تناولت التابلت الصغير الذي استخدمه بدلا عن اللاب توب قبل أن أنام، وأخذت أقرأ قصيدتي:

" في قلب ميدان التحرير.

أنا وعَلَم البلاد.

كل شيء حولي مظلم.

لا كتائب للشرطة.

لا امرأة طردها زوجها.

ولا امرأة تهتف لينصرها الله

لا لصوص يمكن أن يظهروا الآن.

السيارات خرجت من المدينة ولم تعد.

والناس خرجت بالنوم من الزمن

الميدان يتسع وتبتعد البنايات من حوله.

أنا أتضاءل والعَلَم يتقزَّم

يزداد ابتعاد البنايات فتختفي الشوارع.

في قلب صحراء أقف.

لا أشجار ولا أعمدة للنور.

تضاءل العَلَم حتى صار في يدي.

صاريه صار مثل عود ثقاب.

اشتعل في يدي واحترق.

يدي لا تطولها النيران.

يدي لم تعد في ذراعي.

ذراعي لم تعد في كتفي.

صدري ينشق ويخرج منه هدهد

الهدهد يأكل في أمعائي ويضحك

انطويت فصرت ورقة شجر.

وضعني الهدهد على أطراف مدينة لا أعرفها.

ما إن دخلتها حتى صارت الأشجار تطير أمامي.

لماذا تفعل بي ذلك أيها الهدهد؟

أنا لا أفعل بك أي شيء.

الأشجار ستحمل الحزن معها

لا تحزن حين تترك المدن الأرض ومن عليها.

الإنسان لا يعيش على خطيئة.

الأشياء تنتقم حين يعجز البشر.

خراب في خراب في خراب بلادكم.

سيمشي حاكمكم مثل أوديب.

وحيدا في الصحارى.

ويفقأ عينيه.

دعه في نومه الكبير.

حتى الأشجار إذ تختفي لن يهتم.

سيستيقظ على نوافذ مفتوحة.

لا يدخل منها غير العواصف والغبار.

وساعتها سيصرخ.

أنا أوديب لا أستحق هذا كله.

أنا الذي قتلت العملاق الذي كان يأكل البشر

أنا الذي حللت اللغز الصعب.

لا يدري أنه مقدر له نهاية أسطورية.

كما يتصور أنه فعل!

تداعت الصور على صفحات فيسبوك لحديقة أنطونيادس، وقد صارت خالية من الأشجار الكبيرة وشجيرات الزهور الصغيرة . ظهر في كل الصور رجال البوليس يحيطون بالحديقة ويمنعون الوصول إليها. بل وقف رجال البوليس في كل الطرق المؤدية لحديقة الحيوانات، ابتداء من طريق المحمودية إلى الطرق الأخرى القادمة من ناحية حي سموحة أو الحضرة القبلية. كان هناك سؤال تردد أكثر من مرة على بعض صفحات فيسبوك وتويتر، وهو لماذا لم تطر أشجار حديقة الحيوانات الملاصقة لحديقة أنطونيادس؟ وكانت الإجابة أن ما جرى مُوَجَّه ضد العشاق بالمدينة الجميلة، الذين يرون دائما في حديقة أنطونيادس ملاذا لهم، بعد أن ضاقت عليهم المدينة التي صارت أعظم حدائقها، مثل المنتزه، مكانا يمتلئ بالمحلات والكافيهات وعربات البوليس، وبعد أن زال حي كامل من الأشجار والفيلات الصغيرة، هو حي سموحة، الذي لم يتركوا فيه حديقة واحدة وأصبح عمارات ومباني شاهقة. أجل وصلت السخرية إلى أن ذلك هو سبب طيران الأشجار. التضييق على العشاق ولا شيء آخر. لا علاقة للأمر بشهداء ثورة يناير، فالحديقة لم تكن مكانا للتظاهر، ولم تحدث فيها معارك. وكتب أحد الشباب مؤكدا على ذلك قائلا:

"والله يا ناس أنا يوم 28 يناير سنة 2011، يوم جمعة الغضب يعني، ذهبت إلى حديقة أنطونيادس مع حبيبتي، قلنا الناس حتخرج مظاهرات واحنا نعيش حياتنا. وهناك عرفنا إن الناس خرجت في مظاهرات حاشدة بعد صلاة الجمعة. وانصرف على عجل كل من في الحديقة من الحراس، خوفا من انغلاق الطرق. لم يبقَ في الحديقة غيري وحبيبتي. أمضينا اليوم كله في حضن بعضنا، وعملنا كل اللي احنا عايزينه وسط البرد، وكان أحلى دفا، كانت فرصة لا تتكرر والله".

وقالت فتاة تسمي نفسها "ريا وسكّينة وماتنسوش تحطوا شَدَّة

على الكاف":

"هما يعني المغرمين بيروحوا أنطونيادس بس. ماهم مرشقين طول عمرهم في حديقة الحيوان. المسألة إنه كله بالدور، وبكرة الحيوانات تاكلكم".

أصبحت أؤدي عملي بالصحيفة في صمت . لاحظت أن الكلام في المسألة صار قليلا بين الزملاء. هناك حالة من الوجوم تقريبا بين الجميع. وحمدت الله أني صحفي في صفحة الأدب، ومن ثم لم يزد كلام أي منا على جملة "إيه اللي بيحصل في مصر يا جدعان".

غاب الحديث عن حامد شحاتة على صفحات الميديا. صار قليلا حتى انقطع. لم يصدر بيان من الحكومة يبرر أو يدين أو يفسر طيران أو اختفاء أشجار حديقة أنطونيادس. على صفحات بعض السلفيين والإخوان المسلمين كتب البعض: "طبعا حديقة تحمل اسم واحد كافر لازم ربنا ينتقم منها". أما كتائب النظام الحاكم فقد أجمعوا على أن ما يقال إشاعة، وأن المحافظة تحاصر الحديقة بالبوليس لأن هناك مفاجأة عظيمة ستظهر في حينها. وبينما شعرت بالسخرية من كتائب النظام الإلكترونية، كدت أسب وألعن في هؤلاء الذين لا يعرفون من هو أنطونيادس، ولا سعادة البشر بالفسحة بين أشجار حديقته، ولا متعة النظر إلى قصره، ولا متعة تفتح الأزهار مع قدوم الربيع. أجل. هكذا عرفت من أصدقاء لي في الإسكندرية، يحلو لهم الحديث عن المدينة التي ضاعت معالمها الجميلة، التي لم يروها، بل سمعوا أحاديث أهلهم عنها. هؤلاء الذين أقابلهم عادة في مؤتمرات وندوات أُدعَى لتغطيتها صحفيا في مكتبة الإسكندرية.

صار ما يشغلني هو هذا التغير في الأمر. حديقة لم ترَ شهداء تطير أشجارها. تغيُّر جدير بالتفكير. كنت أرى ذلك السؤال على وجه نجوان حتى سألتني:

- هل تتوقع أن يحدث هذا في حديقة الحيوان في الإسكندرية أيضا أو حديقة الحيوان في القاهرة؟

كنت ألمح شيئا من الخوف على وجهها. لو طارت أشجار حديقة الحيوان هنا أو هناك، ستنطلق الحيوانات إلى الشوارع، وربما، بل مؤكد أن لا أحد سيوقف تقدمها أو يقدر على اصطيادها أو إعادتها.

قالت نجوان في أسى:

- هل يمكن أن نسافر بعيدا عن القاهرة؟

ابتسمت وقلت:

- إلى أين نذهب؟ الأخبار تأتينا في أي مكان في العالم.

- خايفة فعلا أشجار حديقة الحيوانات تطير والأقفاص تنفتح والحيوانات تهرب.

ضحكت، وقلت:

- كل شيء جائز الآن يا نجوان، لكن الحمد لله نحن في حدائق القبة. يعني الحيوانات حتى تأتي من الجيزة سيكون قابلها أكثر من شخص يوقفها أو يصطادها أو حتى يقتلها. لكن هل أنتِ خائفة بجد؟ هل طارق كلمك من جديد؟

- لا. أعتقد هكذا لن يكلمني مرة أخرى. لقد غاب عني شهرا الآن. قل لي أنت هل كلمتك نادين؟

- لا. هي مرة واحدة في البداية لم تتكرر.

سكتت قليلا، ثم قالت:

- ربما لأن شجرتها طارت. طارق لم يكلمني عن أي أشجار قبل أن يستشهد.

- لا تقلقي يا نجوان. ما يحدث لا يخصنا وحدنا. الناس كلهم يراقبون ما يحدث ولا يشعرون بخوف مثلك.

كانت نهاوند قد أتت من غرفة النوم جارية وفي يدها دبدوب تحب أن تلعب معه. قلت ستشغل بها نجوان الآن وأخرج أنا. لقد

ذهبت عشرة أيام إلى شارع محمد محمود بعد أن ينتصف الليل فلـم أقـابل امـرأة الزاويـة الحمـرا، ولا أحـد يتفـرج علـى رسـوم الجرافيتي، ولا الرسوم نفسها ظهرت من جديد. أصابني كثير من الفزع على نفسي، وفكرت أن كل ما رأيته أو سمعته كان خيالا، وربمـا هـو مـن العلامـات الأولـى للشيـزوفرينيا. ورغم أن نجـوان قاسمتني في الحديث عنه أوعن معظمه ، فماذا يمنع أن تكون هي أيضا دخلت في بداية شيزوفرينيا. لكن القبض على حامد شحاتة من دار النشر، والقبض عليه قبل ذلك وأنا معه، لا يعني أن هناك شيزوفرينيا، ولا أحلام نوم ولا يقظة. لكني الليلة بعد أن مضى شهر الآن على مقابلتي المرأة الغريبة، أحسست أنني وقد عرفت بيتها من قبل يمكن أن أذهب إليها في الزاوية الحمرا. لا بد أنها لو رأتني الليلة ستترك شقتها وتأتي لتقابلني، وربما تصحبني إلى مكان بعيد وتتحدث معي حديثها الغريب. هذه المرأة تمتلك أسرارا لا أعرفها، ولن أخسر شيئا إذا ذهبت إليها. لا يزال عسلها في فمي!

تركت نجوان التي لم تعترض على سهري في الخارج. قلت لها أحتاج أن أمشي في شوارع حدائق القبة قليلا بالليل حين تخلو من الناس. أحتاج أن أخلو إلى نفس في الطرقات، وربما أذهب إلى قصر القبة وأجلس قليلا في الحديقة أمامه ولن أتأخر. نظرت إليّ في حيرة، وقبل أن تتكلم قلت:

- نامي أنت. طبعا كان بودي أن تكوني معي، لكن نهاوند لن تسهر كثيرا.

لم ترد ودخلتُ إلى غرفة النوم. بدَّلت ثيابي. وبينما أترك الصالة إلى باب الخروج توقفتُ. سمعت موسيقى جميلة تصدح. نظرت إلى نجوان فأشارت إلى اللاب توب وقالت باسمة:

- حدثتني مدرسة الموسيقي في المدرسة عن موسيقار وقائد أوركسترا عظيم اسمه أندريه ريو. قالت جربي الاستماع إليه، سيؤنس وحشتك حين تكونين وحدك. قالت إنها تسمعه أكثر من ساعة قبل أن تنام كل ليلة، منذ سافر زوجها إلى الكويت ليعمل

هناك، وتنام سعيدة كل ليلة وتحلم أحلاما جميلة.

توقفت لحظات. كانت موسيقى مبهجة تنساب من اللاب توب، كأن طابورا سعيدا يذهب في رحلة جميلة. سألتها:

- ما اسم هذه المقطوعة؟

قالت:

- دخول الجنة. هي من تأليف موسيقار يوناني اسمه فانجيليس أوديسياس.

وبينما توقفتُ أشعر بجمال اللحن والمسيرة المتخيلة، استطردَت هي:

- منذ أسبوع الآن أستمع إلى عزف أندريه ريو وفرقته. أرقص في غيابك مع "معزوفة النصر" التي ألفها تشايكوفسكي. ومع "دخول الجنة" هذه أشعر كأن روحي تتجدد من جديد، أو كأني طائر يسبح فوق المحيط ويري الشاطئ قريبا وسيصل إليه.

اقتربت منها وأخذتها في حضني. قلت:

- تشجعيني والله أن أبقى أستمع معك، لكني سأفعل ذلك فيما بعد. المهم أنني أتركك سعيدا بسعادتك.

كنت أعرف حبها للموسيقى الذي أخذته عن طارق. والحقيقة إني أيضا أحب الموسيقى، لكن حبها هذا الذي وصل إلى درجة العشق للموسيقى كبير وجديد.

خرجت ومشيت قليلا مقررا الذهاب إلى حي الزاوية الحمرا. لكني ما إن ركبت تاكسي من شارع مصر والسودان حتى قلت للسائق:

- ميدان التحرير من فضلك.

كانت الساعة نحو الحادية عشرة مساء، لقد دخلنا في شهر سبتمبر الآن لكن لا تزال الحرارة تتسيد الجو. يقين استقر في

روحي بأني سأرى المرأة الليلة، وسأرى صور الشهداء على الحوائط، وسأعرف منها كيف تحتفظ بهم كما قالت. في هذه المرأة سر ما يحدث في البلاد، وسأعرف منها هذا السر.

قررت أن أجلس في الجريون حتى يتقدم الليل أكثر، وفي نحو الساعة الثانية صباحا أترك الجريون إلى شارع محمد محمود، ثم عدلت عن الفكرة. لا أريد أن أقابل أحدا من الكتاب أو الصحفيين. لا أريد أن أتناقش مع أحد في شيء، وبالطبع لن أستطيع أن أجلس في الجريون وحدي، ولا في أي مقهى بـ"وسط البلد". إذن أجلس في مقهى في عابدين مثلا، بعيدا عن تجمعات الكتاب والفنانين، أو في ميدان لاظوغلي. هناك أكثر من مقهى جلست فيها في أوقات متفرقة، ولا يجلس بها أدباء أو فنانون. وحتى لو قابلني أحد سأصافحه وأعتذر عن عدم الجلوس، وأبحث عن مقهى آخر.

أدهشني أن المقاهي التي خشيت أن أجلس فيها كلها مغلقة. عرفت ذلك من سائق التاكسي الذي قال لي:

- رايح وسط البلد ليه يا أستاذ الآن؟

ضحكت وسألته:

- هل هذا ممنوع؟

- المقاهي كلها مغلقة منذ ساعة. أنا قادم من هناك بزبون نزل قبل أن تشير إليّ.

- كيف ولماذا؟

- الأمن مرّ عليها كلها وأغلقها، لأن الرئيس قادم غدا يزور المتحف الإسلامي. هكذا قالوا. طيب أين المتحف الإسلامي من "نص البلد" !

تساءلت:

- هل هذا معقول؟

- والله كما أقول لك. بل أكثر من هذا أيضا. سيارات للشرطة مرت تنادي بالميكروفون على الناس، ألا يفتحوا البلكونات غدا، إلا بعد الساعة واحدة ظهرا.

قلت مندهشا:

- سبحان الله. هذا لم يحدث في أي عصر.

سألني:

- فاكر السادات؟

- طبعا فاكره.

- كان يتنقل بهليكوبتر. كان مريحنا.

قلت ضاحكا:

- الله يرحمه. لكن الدولة صارت فقيرة والهليكوبتر غالي.

ضحك بقوة وقال ساخرا:

- صحيح. طب نلم احنا تمنه من بعض!

ضحكنا معا. أدركت أنني سأمشي في شوارع "وسط البلد" وحدي، ومن ثم سآخذ طريقي إلى ميدان لاظوغلي؛ دون أن أقابل أحدا يتحدث معي في أي شيء.

تركت التاكسي في ميدان طلعت حرب. مررت على مقهى ريش فوجدته مغلقا، وخلفه مقهى زهرة البستان فوجدته مغلقا، وخلفهما مقهى "على أد الإيد" فوجدته مغلقا، وفي شارع هدى شعراوي وجدت مقاهيه مغلقة. وصلت إلى مقهى الندوة الثقافية فوجدته مغلقا، وكذلك مقهى سوق الحميدية ومقهى الحرية. أخذت شارع نوبار لأصل إلى ميدان لاظوغلي. قلت هناك قد أجد المقاهي مفتوحة، وبالفعل وجدت مقهى! جلست أشرب الشاي وأفكر في زيارة الرئيس الغريبة للمتحف الإسلامي الموجود في ميدان باب الخلق، وإغلاق مقاهي وسط البلد البعيدة. هل هو

الخوف من أن يتكرر حادث التفجير الذي حدث في يناير عام 2014 وكان يستهدف مديرية الأمن المواجهة للمتحف، لكنه ترك آثارا سيئة على المتحف نفسه؟ أدركت كم الرعب الذي ينتاب الدولة من الإرهاب الذي يمرح في سيناء!

انتبهت إلى أني جالس وحدي بالمقهى. أين ذهب روّاده؟ فكرت أنه ربما جاءت تعليمات بالغلق مبكرا ولم ينفذها أحد. لكنه على بعد خطوات من وزارة الداخلية، فهل يمكن عدم تنفيذ أوامرها؟ تذكرت أنهم أعلنوا انتقال وزارة الداخلية إلى مدينة نصر. قلت لنفسي: لكن لا يمكن أن تكون الوزارة القديمة خالية تماما. لا بد أن بها من يعمل حتى الآن.

قبل أن أجد إجابة لماذا المقهى غير مغلق، جاء شخص ليجلس فإذا بالجرسون يطلب منه الجلوس بالداخل، وليس على الرصيف مثلي. نظر إليّ الرجل في دهشة ثم قال للجرسون:

- طيب ما الأستاذ قاعد ع الرصيف!

قال الجرسون:

- الأستاذ من وزارة الداخلية. كنا حنقفل قلنا نستنى لما يشرب الشاي.

اندهشت من كونه يظن أني من وزارة الداخلية. لكني ابتسمت وقلت:

- أنا لست من وزارة الداخلية.

نظر الجرسون إليّ في دهشة ثم قال:

- إذن اجلس بالداخل يا أستاذ.

انتقلت أجلس بالداخل مع الرجل القادم منذ لحظات. ما إن جلست حتى قال الجرسون:

- متأسف. أصل فيه ضابط شبهك بالضبط دائما يأتي ويجلس هنا.

ارتبكت أكثر، ثم ابتسمت وقلت:

- أنا صحفي.

- أهلا وسهلا.

قال ذلك الجرسون، ثم التفت يأتي بالشاي إلى الزبون الآخر الذي سألني:

- حضرتك صحفي سياسة؟

- لا. أدب.

ابتسم وسكتَ لحظات، ثم قال:

- أنا شاعر.

قلت:

- أهلا وسهلا.

فكرت أنه بعد قليل سيطلب مني أن أسمع شعره، وسيكون شعرا سيئا، وسيقول لي آراءه التي ستكون بلهاء في الشعر والأدب، ثم سيحدثني عن الإعلام الذي لا ينشر له قصائده، وينشر لأصدقاء الإعلاميين، وغير ذلك كثير مما يقوله دائما البسطاء الذين يتصورون أنهم شعراء ولا يدركون سذاجة ما يكتبونه أبدا. قررت أن أشرد عنه إذا طلب أن أسمع شعره. هو رجل في الخمسين ولم يحدث أن قابلته أو رأيت له صورة بين الشعراء من قبل. لكنه سألني:

- ما دمت صحفي أدب، إذن تقرأ الأدب.

- مؤكد.

- طيب هل قرأت قصة قصيرة لكاتب ألماني عنوانها "قبو البصل"؟

ابتسمت وقلت:

- قصة جونتر جراس.

تساءل:

- لكن هل قرأتها؟

- طبعا.

- أنا قرأتها صدفة. ليس بالضبط. أنا بنتي تدرس الأدب في كلية الآداب. كان معها كتاب فيه مختارات من القصص الألمانية وفيه هذه القصة. لا يمكن أنساها.

- أنا أيضا لا أنساها.

- منذ أن قرأتها وأنا أفكر أن أفتح مطعما تحت الأرض، يشم فيه الناس البصل ويبكون. تفتكر لو فعلت هذا هل سيأتي أحد؟

- ستأتي مصر كلها.

ضحكنا معا. نسيت خوفي أن يطلب مني أن أسمع شعره. لا بد أنه لم يستمر في كتابة الشعر واكتفى بتشجيع ابنته على دراسة الأدب، مثل كثيرين غير موهوبين يحبون الأدب، ثم يختارون تشجيع أبنائهم عليه، وينصرفون للحياة ومصاعبها اليومية. لكني دون أن أقصد سألته:

- هل نشرت شعرا من قبل؟

- لا.

- وهل ما زلت تكتب الشعر؟

سكت لحظة ثم قال:

- هذا بلد لا يستحق الشعر.

سكتنا. بل حط علينا صمت طويل.

أصابت كلماته روحي حقا. لم أجد معنى لأن أذكر له أني شاعر.

جلست أنا شاردا فيما فعلت قبل أن أصل إلى هنا. لقد أخذت جولة في شارعي هدى شعراوي وصبري أبو علم. لقد نظرت إلى حائط بطريركية الأرمن الكاثوليك، وابتسمت قائلا لنفسي: قد يظهر الجرافيتي الليلة تقديرا لحضوري. ثم رحت أفكر: هل سأقابل المرأة اللغز الليلة حقا؟ وهل ستأخذني إلى المكان الذي تحتفظ فيه بالشهداء؟ وكيف حقا تحتفظ بهم؟

رأيت نفسي أمشي معها وحدنا في شارع محمد محمود. قالت لي:

- طبعا تعتقد أن لقاءنا الليلة صدفة؟

لم أرد، فاستطردت هي:

- منذ قابلتك آخر مرة ووقفنا معا على كوبري قصر النيل لم آتِ إلى هنا. الليلة أدركت أني سألقاك ولقد حدث.

سكت مندهشا. نفس ما حدث معي حتى إني لم أذهب إلى حي الزاوية الحمرا.

فجأة أظلمت أعمدة الإنارة في الشارع، ورأيتها تقف وسط الظلام أمام العمارة التي احترقت في آخر أحداث محمد محمود وخلت من سكانها. كان السواد الناتج من الحريق لا يزال على واجهة العمارة، وكان ظاهرا أشد سوادا من الليل. دَخَلَت العمارة وأنا معها. صعدت إلى الدور الأخير وأنا معها. فتحت باب الشقة التي أدركت أنها مما احترق من قبل وهَمَسَت لي:

- لا تخف. هنا أحتفظ بالشهداء.

ظللت صاما. دخَلَتْ الشقة فدخلتُ خلفها. أضاءت شمعة تعرف طريقها فوق منضدة صغيرة حولها مقعدان. جَلَسَت وأشارت لي أن أجلس فجلست.

رأيت على المنضدة عشرات الصور الفوتوغرافية للشهداء، وتحت كل صورة اسم صاحبها. قالت ووجها يضيء أكثر من نور الشمعة، وقلمع عيناها السوداوان الواسعتان، وهي تشير إلى أوراق بيضاء

كثيرة وتسحب من بينها ورقة تحمل صورة لشهيد:

- أنا أرسمهم كلما أتيت إلى هنا.

جلست حائرا. لماذا ترسمهم ولديها كل هذه الصور الفوتوغرافية؟

- أنا أرسمهم أجسادا كاملة، وليس فقط وجها وصدرا كما هي الصورة.

لم أتكلم. راحت ترسم أحد الشهداء على ورقة بيضاء حتى انتهت، وأنا أنظر إليها متأملا. ثم تركت الورقة بهدوء على الأرض فخرج من بينها الشهيد طفلا صغيرا يمشي حولنا لا يشعر بنا.

قالت:

- لا تخف. أستطيع أن أعيده إلى عمره الحقيقي، لكن لن أفعل ذلك الليلة. سأفعله يوم أقرر أن أعيدهم جميعا إلى الحياة، ثم أتركهم في الشارع يبحثون عن قاتليهم لينتقموا منهم.

- سيدتي.

لم أكمل. مدت يدها وأمسكت بالطفل صاحب وجه الشهيد وأعادته إلى الورقة فاختفى. قالت:

- أحلم بيوم أذكر فيه اسم الشهيد دون أن أرسمه فيعود للحياة، وأظن أن الله سيعطيني هذه القدرة.

هززت رأسي وأفقت من خيالاتي الغريبة. رأيت نفسي وحدي في المقهى وسمعت الجرسون يقول لي:

- الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل. لقد انصرف الرجل ولم تشعر به. حياك مودعا ولم تسمعه فمشى مندهشا. الآن عليّ أن أغلق المقهى.

نهضت ومشيت عائدا إلى شارع محمد محمود. هل سأقابل المرأة حقا الليلة؟ رأيت الشارع مظلما، لكن جدار الجامعة الأمريكية مضيء وأمامه امرأة ترتدي السواد، تقف تتطلع إلى رسوم

الجرافيتي التي تحمل وجوه الشهداء. يا إلهي. لا يوجد بالشارع ضوء إلا على حائط الجامعة الأمريكية. ضوء من وجوه الشهداء. أرى المرأة بوضوح كلما اقتربت غير مصدق، ولا أحد معها الليلة كأنها بالفعل تنتظرني. ما إن اقتربت منها حتى قالت مبتسمة:

- جئت كما توقعت. هل تتفرج على الشهداء أم تأتي معي لترى كيف يعودون إلى الحياة؟

وأشارت إلى العمارة البعيدة التي احترقت من قبل، وقالت:

- هناك ستعرف كل شيء.

مشيت معها لا أعرف هل ما زلت جالسا بالمقهى أحلم وأتخيل، أم غادرت المقهى وأتيت لأرى الحقيقة؟

-11-

كنت ممددا على السرير جوار نجوان. كنت يقظا بينما كانت هي نائمة.

أريد أن أحدث أحدا في أمر المرأة العجيبة التي تحتفظ بالشهداء في العمارة المحترقة. لن يصدقني أحد.

لم تكن هذه هي الليلة الأولى التي لا أنام فيها. مضى أسبوع الآن يجافيني النوم. صار نومي على أحد المقاعد في العمل أمرا مربكا للجميع، الذين كانوا يسألونني لماذا حقا لا أنام في البيت؟ أكثرهم تخيل أن هناك مشكلة بيني وبين نجوان. كنت أضحك وأقول لهم أنا نفسي أسأل نفسي هذا السؤال. ربما عليّ أن أسافر إلى بلد بعيد. ربما يكون ذلك حلا. أجل. القاهرة الآن تظهر لي عجائبها. ليست القاهرة وحدها فالإسكندرية أيضا. وحتى الآن لا يعرف أحد لماذا طارت أشجار حديقة أنطونيادس من أماكنها.

انتفضت نجوان وقامت جالسة تقول "أستغفر الله العظيم. الشر برة وبعيد يا رب" وراحت تنظر إليّ وحولها كأنها تتعرف على المكان التي هي فيه للمرة الأولى. أدركتُ أن كابوسا هو الذي أيقظها. جلست راكنا ظهري إلى ظهر السرير، وأحطتها بذراعي، ورأيت دمعا يحاول الانعتاق من عينيها. قالت:

- لماذا شاهدت ذلك الفيلم زمان؟

- أي فيلم؟

- فيلم عن الحرب العالمية الثانية، فيه هجوم قوات الطيران النازية على بولندا عام 1939، وكيف كان الهجوم ضاريا على مدينة وارسو وحديقة الحيوان، فخرجت الحيوانات الشرسة إلى الشوارع تطارد الناس الهاربين من الغارات وانهيار العمارات.

نظرت إليها مندهشا، لكنها استطردت:

- لا أعرف هل عاد إليّ الفيلم في نومي، أم أن ما رأيته هو

الحيوانات المفترسة وغيرها تخرج من حديقة الحيوان بالجيزة. أجل هي حديقة حيوان الجيزة. رأيت الحيوانات تملأ ميدان الجيزة ثم تنطلق في شارع مراد. الأسود والذئاب والثعالب والدببة وغيرها، وكلها تتجه إلى ميدان التحرير. الناس سمعت عواء الذئاب وزئير الأسُود فدخلت بيوتها جارية وخلت الشوارع للحيوانات.

ابتسمتُ، وقلتُ:

- الحمد لله لا توجد غارات جوية.

نظرت إليّ بغيظ، ثم تركت السرير مسرعة وأحضرت التابلت الصغير وعادت جواري، ثم فتحت صفحتها على تويتر، وهي تقول:

- أنا متأكدة أن هذا حدث الليلة.

ثم هتفت:

- انظر.

نظرت فرأيت تغريدة تقول:

"أنا من سكان ميدان الجيزة. أكثر من زرافة تقف في الميدان الآن في حالة رعب يحيط بها أكثر من أسد ولبؤة ونمر"

"الأسُود والنمور تقتل الزرافات وتقف تأكل في لحمها بهدوء، ولا أحد قادر على النزول من بيته"

وتركت السرير والتابلت، ووقفت صارخة باكية في رعب:

- الموضوع أكبر من الانتقام للشهداء. لا بد أن نرحل عن هذا البلد. الدولة هي التي أطلقت الحيوانات حتى ترعبنا. أجل. لكن لماذا نعرف كل شيء قبل أن يحدث ؟ سنموت.

تركتُ السرير صامتا، فقالت:

- إلى أين تذهب؟

- لن أتركك يا حبيبتي. لن أخرج.

فاجأتني قائلة:

- لكني أريد أن أخرج.

ولم تنتظر ردا مني. راحت تغير ملابسها وترتدي بنطلونا جينز وبلوزة وتصفف شعرها بسرعة كبيرة، وأنا واقف أنظر إليها غير قادر على الكلام من الصدمة.

خرجتْ إلى الصالة فجاءت خلفي، وقالت:

- ابقَ أنت الليلة هنا حتى إذا استيقظت نهاوند تجد أحدا. أنا لازم أتأكد بنفسي.

عند باب الشقة وجدت نفسي أمسك بها وأقول في شفقة وحب كبير:

- نجوان يا حبيبتي، هل تتصورين أني سأسمح لك بالخروج إلى الموت؟ لقد نجانا الله من الموت أيام الثورة لنعيش معا فهل أفرِّط فيكِ؟

- استدارت باكية وارتمت في حضني.

عدت بها إلى المقاعد. أجلستها. دخلت إلى غرفة النوم وأحضرت لها التابلت، قائلا:

- تابعي الأحداث من هنا.

نظرت لي، فقلت:

- سأحضر اللاب توب وأجلس جوارك. ليس لنا إلا الفضاء الافتراضي. من يدري ربما وصلت بعض الأسود أو النمور إلى شارع مصر والسودان. دعينا نتفرج كأنها بلاد غير بلادنا!

حملقت فيّ لحظات، ثم عادت تنظر إلى التابلت، ثم ضحكت فجأة، وقالت:

- واحد كاتب أهه إنه شايف أسد بيتمشى في شارع مصر والسودان.

ضحكت أنا أيضا، ليس مما كُتب ولكن لأنها ضحكت. فجأة وجدت نفسي أفكر في المرأة التي تحتفظ بالشهداء. لو عرفت الدولة سِرَّها ستجبرها على إطلاقهم الليلة، ليموتوا مرة ثانية بأسنان الحيوانات المفترسة!

شعرت بنفسي أكاد أبكي، ففتحت يوتيوب على الموسيقى العالمية. اخترت ليندساي ستيرلنج تعزف على الكمان وسط أرض وجبال من الجليد. رحت أشاهدها وأسمع، وأعرف أن نجوان تسمع معي. كانت هذه أول مرة أسمع أو أرى الشابة الصغيرة الجميلة ليندساي ستيرلنج. تركت اللاب توب ووقفت وأمسكت بيد نجوان أوقفها:

- ماذا ستفعل؟

- سنرقص. سنرقص حتى تخرب البلاد على من فيها.

- يا مجنون.

قالت ذلك وتركت نفسها لي. صرنا نرقص في الصالة ونضحك حتى رأيتها قد تعبت، فانهرنا جالسين على المقعد أحيطها بذراعي وأحضنها، وأشعر كما لم أشعر من قبل برغبة في الجنس، فحملتها إلى السرير. أين قرأت أنه وقت الرعب يمكن للإنسان أن يختفي في امرأة. كانت قصة قصيرة لكاتب شاب اسمها "الرغبة في الاختفاء" أتذكرها الآن.

انتهينا وعلينا عرق كثير مثل شادية في فيلم "الطريق" ورشدي أباظة. ناولتها سيجارة. تماما لتدخن مثل شادية. دق هاتفها المحمول فانتفضَتْ مرعوبة.

- لن تردي على أحد.

قلتُ. لكنها تناولته بهدوء ونظرت في الشاشة ثم قالت:

- رقم حامد شحاتة. هل خرج من السجن؟

ثم ردت عليه:

- أهلا يا حامد. أيوه معايا نور. تليفونه مقفول - نظرت إليّ فهززت رأسي فقالت – صح. المهم هل خرجت من السجن؟

ورأيتها صامتة لحظات تتسع عيناها رعبا، ثم قالت:

- أحسن حاجة عملتها. المهم لا تنزل من دار النشر الليلة حتى تنتهي هذه المصيبة.

انتهت المكالمة، ثم قالت لي:

- أطلقوا سراحه الليلة، وقالوا له: لو شاطر روّح أو حتى روح مكتبك والأسود والنمور مالية الشوارع. حنخلص منك من غير تعب!

قلت:

- إذن كما قلتِ. الدولة هي من أطلقت الحيوانات.

سكتنا لحظات حتى قالت وقد بدا أنها تتمسك بالقوة:

- الدولة قررت أن تنعطف بنا إلى العبث. فلنتابع الأخبار ولا نخف.

انفَرَدَت بالتابلت من جديد، بينما عدت أنا إلى اللاب توب في الصالة، واخترت مقطوعة موسيقية جديدة بعد أن توقف عزف ليندساي ستيرلينج. اخترت بحيرة البجع. الشيطان الذي سخط الفتاة الجميلة إلى بجعة سيفشل، وستعود النساء إلى طبيعتها وجمالها. ستعود الأشجار إلى البلاد بعد أن يرحل الظالمون.

-12-

حالة من الذعر الكبير سيطرت على الناس. في الصباح لم يخرج الأطفال إلى مدارسهم ولا ذهب الطلاب. أُغلقت جامعة القاهرة لقربها من حديقة الحيوانات، لكن أيضا أُغلقت جامعة عين شمس! أكثر الناس لم يذهبوا إلى أعمالهم. من خرج ركب سيارته من أمام بيته، أو أسرع إلى موقف الميكروباص الذي كان تقريبا شبه خال، أو إلى محطة المترو. في محطة مترو "البحوث" بالدقي شوهد عدد قليل من الناس يخرجون مسرعين من أسفل النفق يصرخون. لقد شاهدوا فهدا جالسا على رصيف المحطة، ولا أحد يبيع التذاكر خلف النوافذ، ولا قوات للشرطة. ضحك أحد الرجال، وعلّق قائلا:

- وصل الفهد إلى الرصيف من غير تذكرة.

وعلق آخر ضاحكا وهو يجري:

- الحكومة حترخص سعر التذكرة، علشان الناس تنزل المترو تاكلها الفهود وتخلص منهم.

كانت هذه الأخبار تصل إلينا من مواقع التواصل الاجتماعي. لقد ألححتُ على نجوان لتتركني أذهب إلى العمل. أقنعتها بصعوبة. قلت لها لن أكتفي بالإنترنت. أريد أن أرى وجوه الناس. أريد أن أرى ارتباك الصحافة اليوم. لا تخافي عليّ. لن أخرج من باب العمارة إلا حين أرى تاكسي يأتي من بعيد. هذا اليوم فيه خبرات لا يجب أن تفوت الصحفي، فما بالك بالصحفي والأديب معا!

احتاج الأمر إلى نصف ساعة حتى وصل تاكسي يمشي على مهل. كان خاليا. ما إن أشرت إليه حتى توقف، فدخلته بسرعة.

قال السائق ما توقعت:

- العمر واحد والرب واحد يا أستاذ. على مهلك.

هكذا هم المصريون يعطون المغامرة شيئا من طعم القدر. كنت

أعرف أن ذلك أيضا سيكون رده حين أسأله ألم تخف من الخروج اليوم . قلت له:

- جريدة أخبار اليوم من فضلك.

ابتسم وقال:

- طبعا الصحفيين لازم يروحوا الشغل. لكن هل سيقوم أحد بمتابعة الأحداث في الشارع؟

قلت ضاحكا:

- الحمد لله، أنا أعمل في الصحافة الأدبية. القصص والشعر يعني.

قال:

- أنت محظوظ. لكن صحفيي الأخبار والتحقيقات ربنا معاهم. أصل أنا أخويا الصغير صحفي في جريدة المصري اليوم. لسه بيتدرب. وأكيد دول اللي حينزلوهم الشارع النهارده.

وضحكَ فضحكتُ، وقلت:

- العمر واحد والرب واحد يا جميل.

صمتٌ طوال الطريق الخالي. التاكسي يتحرك في اتجاه شارع رمسيس، ولا أحد ولا سيارة في الطريق. التاكسي صعد كوبري أكتوبر ولا سيارة على الكوبري. فقط صوت غناء داليدا من الراديو تغني "حلوة يا بلدي".

" كلمة حلوة وكلمتين

حلوة يا بلدي

غنوة حلوة وغنوتين

حلوة يا بلدي.

أملي دايما كان يا بلدي

إني أرجع لك يا بلدي

وافضل دايما جنبك على طول"

رأيته يهز رأسه ويزم شفتيه كمن يندهش. قلت:

- داليدا مصرية أصلا ومن شبرا. لكن هاجرت فرنسا واشتهرت جدا الله يرحمها.

هز رأسه ولم يرد، ولا يزال يزم شفتيه، مما أثار دهشتي وداليدا تغني.

"وذكريات كل اللى فات

فاكرة يا بلدي

قلبي مليان بحكايات

فاكرة يا بلدي

أول حب كان في بلدي

مش ممكن أنساه يا بلدي"

وإذا به يغلق الراديو، ويقول:

- قبل أن تركب معي سمعتها من محطة الأغاني. حولت المؤشر إلى محطة أخرى فعادت إليّ!

وتوقف بالسيارة إلى الجانب ووضع رأسه على الديريكسيون يحاول أن يكتم ألما. ثم قال:

- أنا لو صغير كنت هاجرت. حاولت أقنع ابني بالهجرة يقول لي باحب مصر يا بابا ومش حسيبها. ابني قُبض عليه من شهر لأنه وقف بلافتة مع أصحابه مكتوب عليها "الحرية للمعتقلين".. ابني لسة ماخرجش!

أصابني الصمت، واستمر يتكلم بعد أن أخذ شهيقا عميقا يقاوم به الألم والضيق:

- ابني تخرج في الجامعة منذ عامين ولا يجد عملا. رغم ذلك يصرُّ على البقاء هنا.

ظللت صامتا أفكر.. لقد أعادني إلى شيء أعرفه. واستمر هو يتحدث:

- ابني طول عمره لا علاقة له بالسياسة. أيام ثورة يناير كان ينزل ميدان التحرير ويقول لي يا بابا والله بنتفرج أنا وأصحابي. الدنيا في الميدان حلوة واتعرفت على شباب وبنات كتير جدا حلوين. بنقعد بأدب نغني مع بعض أغاني شادية وعبد الحليم حافظ. وأنا كنت مصدقه وما زلت مصدقه. بعد مبارك ما مشي ابني لم يشارك في أي نشاط سياسي، ولا خرج في أي يوم جمعة علشان أي مظاهرة، والتفت لمذاكرته. عمه مات من سنتين وزعل عليه جدا. عمه كان أكبر مني. من الجيل اللي دخل الجيش قبل هزيمة 67 وطلع بعد حرب أكتوبر. قضى عشر سنين في الجيش من سنة 1965 لسنة 1975. وقعد سنين يحكي لنا بطولاته وبطولات زملائه، ثم فجأة توقف عن الكلام مع أي أحد. كنت عارف إنه شاف البلد بتروح لناس تانية بعيد عن اللي حموها. بتروح للحرامية والمقاولين. كان ابني يسألني: هو ليه عمي مش بيتكلم زي زمان يا بابا؟ لم أكن أرد عليه، لكن أكيد هو فهم. أيضا عرفت أن فيه بنت من اللي عرفهم في الميدان قُبِضَ عليها. أكيد دا السبب في إنه ينزل مع أصحابه بلافتة ضد الاعتقال.

كان السائق يحكي ويمسح دموعه التي لم يستطع إيقافها الآن بيديه، ثم بالمناديل الكلينكس، وأنا في صمت وألم من أجله. ثم قلت له:

- لا تحزن. هوِّن عليك. إن شاء الله سيخرج ابنك من الحبس. آخرتها كفالة ستدفعونها. خذ هذا الكارت الذي به اسمي وتليفوني، علشان لو احتجت فلوس اتصل بي. أنا أقدر أجمع لك الكفالة مع أصحابي. كل المقبوض عليهم بيطلعوا بكفالة دلوقت. الدولة مفلسة وبيلموا فلوس. اضحك يا عم والنبي.

ابتسم وهو يهز رأسه، ثم قال:

- حقك عليّ يا أستاذ. ماكنتش عايز أضايقك. لن تصدقني إذا قلت لك إنه حين غنت داليدا هذه الاغنية أول مرة أنا كنت أعمل سائقا في الكويت. أنا تركت العمل ورجعت. الحمد لله داليدا ماتت ولن تعرف أني أغلقت الراديو حتي لا أسمعها .

شملنا الصمت لحظات وأنا أشعر بارتباك الرجل، ثم هز رأسه وقال:

- لكن ماذا أنا أو حتى ابني فيما يحدث في البلد؟ البلد انفتح لها كتاب مسحور والله. مافيش حد عارف أي حاجة. هل ما يحدث يحدث في بلدنا مصر حقا أم أننا انتقلنا إلى بلد آخر ولا نعرف؟ ربنا يستر ومايطلعش علينا فيل أو تمساح يكسَّر العربية.

ضحكت وقلت:

- فيل آه، لكن تمساح لازم مياه.

هز رأسه وقال:

- أقول لك مافيش حد عارف حاجة دلوقت. يمكن التماسيح تكون بتعيش على البر. استعنا على الشقا بالله.

وعاد يقود التاكسي.

نزل بالتاكسي إلى ميدان رمسيس ولا أحد من البشر يتجه إلى محطة القطار ولا باعة ولا محلات مفتوحة. يا إلهي. كيف يبدو الميدان جميلا! لكن السائق بدا شاردا للحظات. قلت محاولا أن أمزح معه:

- لازلت تفكر في داليدا؟ داليدا ماتت.

قال:

- أبدا. أنا فقط أفكر أن الناس مختفية لأنها خائفة طبعا، لكن أين ذهبت الحيوانات؟ لا حيوان قابلنا في الطريق. هل اختفت كلها؟

- لم نسمع أن الدولة قتلت أيا منها.

قال:

- ولا يمكن أن تكون غادرت القاهرة. لا أخبار تأتي أنها في الطريق الزراعي مثلا أو الطريق الصحراوي. هل تكون صعدت إلى السماء مثل الأشجار؟

أدهشني سؤاله. إذن هو يؤمن أن الأشجار تصعد إلى السماء. أكد لي ذلك قوله أيضا:

- الأشجار يمكن أن تحزن على الشهداء، لكن الوحوش الكاسرة كيف تحزن ولم تلتقِ بهم من قبل؟ يا إلهي. حتى الحيوانات المتوحشة لا تريد أن تبقى بيننا.

كنا دخلنا في شارع الجلاء، لكني كنتُ غيرت رأيي في الذهاب إلى العمل اليوم. قلت له أن يستمر حتى نصل إلى ميدان التحرير، ويدخل بي إلى ميدان طلعت حرب. قد أجد مقهى مفتوحا. الشباب قد يأتون يتابعون ما جرى ويتندرون عليه.

بعد أن عبرنا من خلف المتحف المصري متجهين إلى الميدان توقف فجأة. داس فرامل قوية.

- سوف أعود يا أستاذ. ابني ضاع مني ولا يجب أن أضيع أنا أيضا من أمه وأخواته. فعلا ما كان عليّ أن أخرج للعمل اليوم.

كنت أنظر أمامي، إلى الميدان الذي تفرقت في وسطه وعلى محيطه بعض الأسود والنمور والفهود والثعالب والذئاب والقرود.

- عد معي يا أستاذ. سنموت.

- انتظر أرجوك.

- يا أستاذ سنموت.

قلت:

- إذن عد وحدك. ولا تنسَ أن تتصل بي إذا احتجتني.

- أنت صحفي مجنون.

رآني بعد أن نزلت من التاكسي أقف أخرج له نقودا من جيبي، فقال:

- لا أريد شيئا. أريد حياتي.

واستدار بالتاكسي عائدا بسرعة. وقفت أنا وحدي مندهشا مما فعلت، متوجسا من رعب سيجيء.

هل سأستطيع التحرك إلى الأمام حقا؟ هل سأستطيع العودة؟ هل سأستطيع الدخول إلى شارع قصر النيل أو شارع شامبليون؟ هل سأستطيع الحركة أصلا؟ أكاد أرى جميع الحيوانات توجِّه إليّ نظرها من بعيد. هل ستهجم عليّ الآن؟

دق الموبايل في جيبي فغضبت. مَن المجنون الذي يطلبني الآن؟ وضعت يدي في جيبي أضغط عليه لأغلقه؛ قد يصل صوته إلى الحيوانات الكاسرة. شاهدت من بعيد عند نهاية الميدان امرأة متشحة بفستان أسود تأتي مسرعة من ناحية شارع محمد محمود. تدخل الميدان على عجل. تسرع ناحية الحيوانات. من هذه المجنونة؟ هل هي امرأة الزاوية الحمرا. هي. لا يمكن أن أخطئها. وقفت أراها تتقدم إلى أحد الأسود بسرعة. تمد له يدها تمسك بشعر رأسه وتعود. ثم تتركه فيمشي خلفها مثل أي خروف! يا الله. هل يمكن أن يحدث هذا؟ هل يمكن أن أفعل مثلها الآن وأتقدم ناحية الأسود والنمور والفهود؟

رأيت غزالة تمرح وسط الميدان. تجري في كل اتجاه وتعود إلى المنتصف تقف جوار العلم المرفوع. بدت لي من بعيد فائقة الروعة والجمال؛ برشاقة جسدها وقرونها الرفيعة العالية. كم وددت أن أتقدم منها آخذها وأمضي في طريقي. لكني رأيت فجأة فوق مجمع التحرير وجوها ملثمة، ويحمل أصحابها بنادق يصوبونها إلى الحيوانات. ليس فوق مجمع التحرير فقط، لكن أيضا فوق كل العمارات المحيطة بالميدان. خفت على المرأة التي

مشت وخلفها الأسد. لا بد أنهم سيقتلون كل الحيوانات الآن. لكنها كانت قد دخلت شارع محمد محمود واختفت. فكرت في نفسي أنا الذي يمكن أن أصاب. جريت إلى الجانب وارتميت جوار سور المتحف المصري على الأرض. سمعت صوت طلقات الرصاص. وملأ الفضاء زئير لم يستمر إلا لحظات. لم يستطع حيوان واحد الجري بعيدا عن الرصاص الذي توقف صوته بسرعة. وقفت في مكاني أزيح التراب عن ملابسي لا أصدق ما جرى، وأنظر إلى الميدان الذي دخلته سيارة شرطة كبيرة، نزل منها جنود ملثمون وجروا يحملون الحيوانات المقتولة إليها. مشيت مطمئنا بأن شيئا لن يصيبني، لكن اختفت وجوه القناصة الملثمة من فوق الأبنية واختفت الحيوانات. مشيت على الجانب الأيسر من الميدان. كانت سيارة الشرطة قد ابتعدت بما حملته من حيوانات مقتولة. كنت عبرتُ شارع قصر النيل ولا أدري، ووصلت إلى شارع طلعت حرب. التفتُّ أنظر إلى ميدان التحرير الخالي إلا من شمس تفرش ضوءها على أرضه وفي فضائه. مشيت في شارع طلعت حرب حتى وصلت إلى مقهى ريش. وجدته مفتوحا وكان هذا مثيرا لي. لا أحد بداخله وصاحبة المقهى لم تحضر. لكني وجدت الجرسون النوبي الصغير يقابلني بابتسامته، ويقول:

- الناس كلها خائفة، لكن أنا أحببت أن أتفرج. سمعت صوت رصاص الآن ولم أرَ أي أسد ولا نمر ولا أي حيوان منذ الصباح.

قلت له بعد أن جلست:

- لقد قتلت الشرطة كل الحيوانات التي ظهرت في الميدان.

ضحك، وقال:

- قادر ربنا يرسل حيوانات أخرى لم تظهر بعد. نفسي أشوف أسد ماشي في الشارع أو نمر.

ضحكت، وقلت له:

- سأموت وأشرب فنجان قهوة.

قال:

- لم يأتِ أحد من العمال. أنا أنام هنا في البدرون السفلي من المقهى. لكني سأعد لك قهوة جميلة.

جلست وحدي في المقهى أشرب قهوتي مبتسما. لم يحدث أن وجدت المقهى خاليا قط. كانت دهشتي من وجود الجرسون النوبي الصغير الذي كان ينتظر مرور الحيوانات الهاربة في شارع طلعت حرب. قلت له ضاحكا وقد جلس معي:

- لماذا لم تذهب حقا إلى ميدان التحرير لترى الحيوانات؟ كيف فكرت أنه يمكن أن تمر من هنا؟

ابتسم، وقال:

- حيوانات مفترسة كيف أذهب إليها؟ لو كانت مرَّت من هنا كنت سأصورها بالموبايل من خلف الباب الزجاجي المغلق. فرصة لا تُعوَّض.

- عندك حق. لكن كيف ظلت الحيوانات في ميدان التحرير حتى قُتِلَت. هذا لا يمكن فهمه.

قال مبتسما:

- يبدو أن الميدان أخذ سمعته حتى عند الحيوانات.

ضحكنا وأنا أفكر في جنون ما فعلتُه. فكرت أن أحدثه عن المرأة التي أخذت الأسد في يدها ومضت. لن يصدق. ثم إني لا أتصور أن أحدا يعرف هذه المرأة غيري. أو حتى يمكن أن يراها. هل خصني بها الله ليزداد أملي؟ أم خصني بها الله ليزداد عذابي؟ لكنه تركني مسرعا ناحية الباب وهو يهتف:

- غزالة!

قمت خلفه بهدوء. كانت غزالة تقف وسط الشارع حائرة. فتح هو الباب ونظر بهدوء إلى الشارع من الناحيتين. كنت قد صرت

جواره. قال:

- الغزالة محتارة وسط الشارع.

قلت:

- افتح الباب على آخره وابتعد عنه. قد تدخل هنا.

ضحك وهو يقول:

- وإذا دخلت ماذا أفعل؟

- احتفظ بها وسلِّمها لإدراة حديقة الحيوان فيما بعد. لو تركناها سيجدها أي شخص وقد يذبحها ويأكلها.

كان هو يفتح الباب إلى آخره، وأنا أتكلم كأنه كان يفكر فيما أقول. لكنه ابتعد عن الباب. خرج إلى الشارع ومشى ناحية الغزالة الجميلة بهدوء، وأنا في دهشة من وقوفها. أمسك بها من أحد قرونها وتقدم، فتقدمت معه. دخل بها إلى المقهى يضحك ويقول:

- سأضعها بالداخل في بدرون المقهى. سأشتري لها طعاما ثم أغلق المقهى.

سالته :

- هل تعرف ماذا يأكل الغزال؟

- أكيد أعشاب. سأعرف من الإنترنت.

ووضع يده على ظهر الغزالة التي صارت تقترب منه تكاد تدخل في حضنه.

قال:

- سأحتفظ بها حتى الغد، وسأرى مع الأستاذة صاحبة المقهى كيف نتصل بالمسؤولين.

مشت الغزالة إلي جواره وأنا غير مصدق. دخل بها القسم الداخلي

من المقهى لينزل بها القسم السفلي منه. البدرون. جلستُ أفكر في المرأة التي مشت بالأسد، وفيه هو الذي مشى بالغزالة. إذن أنا أستطيع أن أصحب ما أقابله من حيوانات يمكن أن تظهر إلى البيت. لماذا لا؟ لماذا إذن تم قتل الحيوانات ما دامت مسالمة؟ سألت نفسي: ألم يرَ القناصة المرأة وهي تمشي بالأسد في اطمئنان؟ لا بد من أن الموضوع الآن مثار على الإنترنت. على الأقل من سكان الميدان المحاصرين في بيوتهم. فتحت صفحة فيسبوك من موبايلي، ووجدت من كتب:

"امرأة مجهولة تمسك بأسد فيمشي معها، وتخرج من الميدان إلى شارع محمد محمود، ولا يعرف أحد أين اختفت"

تعليقات لا تُصَدَّق وتعليقات تُضحِك وتعليق يسأل أسئلتي:

"لماذا والمرأة استطاعت أن تصحب الأسد يتم إطلاق النار علي بقية الحيوانات؟ لماذا يتم قتل المسالمين دائما؟"

واجتمعت الإجابات على صيغة متقاربة:

"شهوة القنص من فوق مجمع التحرير والعمارات المحيطة وسور الجامعة الأمريكية لا تزال قائمة"

لكن تعليقا أثار انتباهي أكثر يقول "لماذا لم يظهر فيل في أي شارع أو ميدان؟ أين ذهبت الأفيال؟"

فكرت في ذلك لحظة، ولم أصل إلى إجابة غير أن ما يحدث كله فوق قدرة العقل على التحمل، فما جدوى التفكير بالأفيال؟!

تركت مقهى ريش دون أن أخبر الجرسون النوبي الصغير، الذي لا يزال في الأسفل مع الغزالة، وخرجت أمشي غير خائف خطوات إلى ميدان طلعت حرب. تمنيت أن أجد زرافة آخذها إلى البيت. لكن هل يمكن أن تدخل من باب البيت؟ ضحكت.

لم أجد أحدا من البشر ولا الحيوانات. كل المحلات مغلقة. حتى الرجل الذي يطلب التبرعات لبناء المسجد اختفى اليوم. دخلت في شارع صبري أبو علم ودرت من جوار محل القزَّار المغلق إلى

80%

مقهى زهرة البستان. وجدته مغلقا. مشيت في طريقي الأليف إلى شارع هدى شعراوي. كل شيء مغلق. لا بد من أن الأمر نفسه سيكون في ميدان باب اللوق. حقا من المجنون الذي يفعل ما فعلت اليوم ويأتي هنا؟ سائق التاكسي المسكين لا بد عاد إلى بيته، فكيف أستمر أنا في المشي على قدميّ؟ لكني تشجعت وأخذت طريقي إلى شارع محمد محمود. سأذهب إلى العمارة المحروقة وسأجد المرأة هناك. أجل. هي امرأة الزاوية الحمرا التي لا بد تنتظرني.

دخلتُ العمارة الخالية وصعدتُ إلى حيث صحبتني أول مرة. وجدت باب الشقة مغلقا. طرقت الباب. لا بد من أنها بالداخل وستخرج لي. بالفعل فتحت الشراعة الزجاجية فرأتني. قالت:

- أنت؟

لم أرد. فَتَحَتْ الباب فدخلتُ. لمحت دموعا في عينيها. رأيت الأسد يخرج من إحدى الغرف ويقف ينظر إليّ، فتجمدت مكاني. قالت:

- لا تخف. أنت في حمايتي وحماية كل الشهداء. اجلس.

كنت مازلت واقفا من الصدمة. كيف حقا نسيت أن معها أسدا؟ جلستُ فجلست أمامي، وقالت:

- لم أكن أحب أن أراك بالنهار، لكن ما دمت أتيت فتحت لك الباب.

ظللت متجمدا لا أستطيع الكلام، واستمرت هي:

- أحسستُ أن أحدا سيأتي هنا ويمزق صور الشهداء، ومن ثم لا أستطيع إعادتهم للحياة، وأن الحل في حارس مثل هذا الأسد. شاء الله أن تهرب الحيوانات من الحديقة بعد أن طارت الأشجار، فأتيت وكلي يقين أني سأصحب الأسد دون خوف، وفعلتها.

كنت أنظر إليها نظرة لا تتحرك فيها عيناي عنها. قالت وهي تمسح دموعها:

- أنا أبكي من الفرح. الآن لن يستطيع أحد أن يقتحم الشقة.

كنت مازلت غير قادر على الحديث فوقفتُ. كنت أريد أن أسألها هل أنتِ حقا سيدة الزاوية الحمرا كما قلتي لي من قبل ؟ أصبحت فجأة غير قادر أن أصدق. وكيف تمتلكين هذه الشقة؟ لكني فكرت أنه مع هذه السيدة التي لا شبيه لها، لا معنى للأسئلة. كل الأسئلة والإجابات من عالم آخر. وقالت هي:

- هيا بنا ننزل إلى الشارع. سأعود في الليل.

خرجت معها تاركين الأسد بالشقة. ونحن ننزل السلم سألتها:

- لكن الأسد لا بد يحتاج إلى طعام فماذا ستفعلين؟ إنه يأكل على الأقل ثلاثين كيلو لحم في اليوم.

قالت بيقين:

- ما دام يعيش الآن بين الشهداء لن يحتاج طعاما.

عدت إلى الصمت غير قادر على الفهم، ورأينا الشارع أمامنا، فقالت:

- سآخذ طريقي إلى الزاوية الحمرا.

شعرتُ كأنها عرفت بحيرتي فردت عليّ. ثم قالت:

- لا تغامر لتراني نهارا مرة أخرى. الليل دائما موعدنا. الليل أسرار والنهار فضّاح. أما زلت تشك في أني امرأة الزاوية الحمرا؟

تركتني وأخذت طريقها إلى ميدان باب اللوق، بينما أخذت طريقي شاردا إلى ميدان التحرير من جديد. خطوات قليلة ووجدت نفسي أمام دار "فُل وورد" فتوقفت. هل يكون حامد هنا الآن كما قال لنجوان حقا؟

لم أتردد وصعدتُ إلى الدار. ضغطت على زر جرس الباب، فسمعت بعد لحظة صوته من خلف الشراعة يتساءل في اضطراب: "مَن؟". قلت له:

- افتح. أنا نور.

فتح الباب ضاحكا، وهو يقول:

- ادخل ولا تخف. أخفتني!

ترددت في الدخول. رأيته ليس كما كان من قبل. صار أكثر نحولا. كان يرتدي بنطلونا جينز وتي شيرت يبدو متسخا. لقد أُفرِجَ عنه في منتصف الليل لكنه لم يعد إلى بيته. تركوه في الشارع حتى تأكله الحيوانات الهاربة من الحديقة.

دخلت على مهل غير متوقع لأي شيء، غير أني كنت أعرف ما سيقوله عن الرعب والعذاب في هذه الأيام التي اختفى فيها قسريا. ما إن دخلت من الباب وأغلقته خلفي، حتى وجدت في الغرفة أسدا يتوسطها، وحامد قد جلس على المقعد جواره يضع يده على رأس الأسد ويبتسم. طبيعي أن يصيبني الرعب، فصرخت:

- ما حكاية الأسود معي اليوم؟ سأعود.

ما كدت ألتفتُ حتى لحق بي حامد، وقال:

- قلت لك لا تخف.

كنت قد تجمدت في مكاني. شعرت بقلبي يكاد يقف عن الخفقان. قال حامد من جديد:

- تقدم. لا تخف. لن يؤذيك.

كان الأسد عجوزا كما بدا من شكل وجهه. قلت بصوت لا يكاد يخرج من فمي:

- أنا مش قادر أتحرك لا ورا ولا قدَّام.

ورأيت الأسد يتثاءب كما يتثاءب أسد مترو جولدوين ماير، لكن دون صوت. ضحك حامد، وقال:

- إذا لم تجلس معي سأطلقه عليك.

لم يكن يمسك به. فقط يضع يده على رأسه ويمشي بها على لبدته.

تقدمت بهدوء وهو يبتسم. وقف وقال:

- سأترككما معا وأعد لك فنجانا من القهوة.

قلت:

- أرجوك لا تتحرك من مكانك حتى أخرج.

جلست أمامه بيننا الأسد يضع هو يده على رأسه لا يزال. ليست المرأة وحدها من أخذت أسدا من الميدان. لكنه قال:

- لا تندهش. لقد تركوني في منتصف الليل بعد أن عرفوا بهروب الحيوانات. لم يعرفوا أن الحيوانات ستكون كريمة معي. تركوني وسط ميدان التحرير. في كل اتجاه أذهب إليه هناك أسد أو نمر أو فهد أو ثعلب أو ذئب. هل تعرف كيف أتيت بهذا الأسد؟

أشرت له برأسي أن لا، فقال:

- رأيته فوقفت حائرا مرعوبا وهو يتقدم ناحيتي. كدت أبول على نفسي كلما تقدم. تماسكت. قلت العمر واحد والرب واحد. هي موتة ولا أكثر. لكن الأسد وهو يقترب مني راح يدور حولي ويقترب أكثر ثم صار لاصقا بساقي يمسح جسده فيها، كأنما يربت عليّ. كنت أشعر أني دخلت في بعضي وصرت شبحا، لكني أحسست به يألفني، فوضعت يدي على رأسه، فإذا به يمسح رأسه في فخذي. آه والله كما أقول لك. مشيت خطوة بطيئة. خطوة واحدة فمشى جواري. مشيت الثانية والثالثة وهو جواري. وضعت يدي على رأسه ومشيت حتى دخلت شارع محمد محمود وهو لا يفارقني وجئت به هنا.

-13-

عدت إلى البيت شاردا، لكن ما إن دخلت حتى وجدت نفسي أضحك. كانت نجوان في المطبخ. سمعت صوت وقع أقدامي فهتفت: "حمدا لله ع السلامة يا حبيبي. تتغدى معايا؟". قلت: "طبعا". وقلت في نفسي: الآن نجوان صارت أجمل. أردت أن أحدثها عن مغامرتي العجيبة اليوم. كانت نهاوند تتحرك ضاحكة فوق "سكوتر" الأطفال في الصالة. انحنيت أحملها أقبِّلها ثم أعدتها إلى لعبتها. هل سأحدث نجوان عما حدث حقا؟ لكني انتبهت إلى موسيقى جميلة تنبعث من تابلت نجوان. موسيقى أعرف أنها لأغنية فيروز "كانوا يا حبيبي". دخلت عليها المطبخ وأحطتها من الخلف بذراعي أقبِّلها في عنقها، وهي تقف أمام البوتاجاز تقلب في طعام بقي منذ أمس. قالت:

- تصور اللحن ليس للرحبانية؟

- كيف؟

- لحن روسي قديم من الثلاثينات انتشر أثناء الحرب العالمية الثانية. أظن عنوانه بالعربي "كانوا الخيالة".

ضحكتُ، وقلتُ:

- أصبحتِ مؤرخة موسيقى يا نجوان.

- أنقذ نفسي مما يحدث حولي من جنون. أسمع موسيقى وأبحث عن أي معلومات عما أسمع. على أي حال الرحبانية كثيرا ما استفادوا من موسيقى كلاسيكية عالمية.

- يا ترى لو قلت لك ماذا حدث اليوم سترتاحين؟ أنه أمر مضحك رغم الرعب؟

- انتظر. لا تقل شيئا حتى نضع الطعام على السفرة في الصالة ونأكل.

تركتها إلى غرفة النوم. غيرت ثيابي وارتديت بيجامتي. عدت

إلى الصالة وجلست. رحت أقلّب صفحات الإنترنت في اللاب توب. يقين شملني بأن شيئا جديدا سيحدث وأنا في الطريق. حين نظرت إلى فيسبوك أصابتني دهشة كبيرة جدا. لقد تم القبض على حامد شحاتة من جديد ومعه الأسد في دار النشر "فُل وورد". ستوجه له النيابة تهمة خطف الأسد والاستعداد لإطلاقه ليقتل الناس ويشيع الرعب، ولا بد سيكون متهما بإطلاق الحيوانات كلها، سيتم البحث عمن تسببوا معه في ذلك. يا إلهي. كل ذلك حدث في الوقت القليل الذي تركته فيه! وقفت أضرب كفا بكف. رأيت نجوان قادمة تحمل الطعام. قلت:

- قبضوا على حامد من جديد. هذه هي المرة الثالثة.

توقفت حاملة صينية فوقها بعض أطباق، وقالت في غيظ:

- ألم يتركوه أمس وسط الظلام؟

وضعت الطعام فوق السفرة، ثم انهارت جالسة في حزن وغضب، وأنا أفكر: هل سنأكل اليوم حقا؟

قالت:

- ماذا سنفعل في سدة النفس هذه؟

لكن فجأة تغيرت الموسيقى. لا أعرف ولا تعرف كيف تحولت الموسيقى فجأة إلى أغنية قارئة الفنجان. سمعنا عبد الحليم يغني "بحياتك يا ولدي امرأة عيناها سبحان المعبود". نظرت نجوان إليّ مبتسمة في دهشة، وقالت:

- ماذا جرى؟ كيف تغيرت الموسيقى وحدها إلى عبد الحليم حافظ؟

ونَهَضَت لتنظر في التابلت الخاص بها لترى كيف تداخلت الأغاني والموسيقى، فأمسكتُ بيدها، وقلت:

- اتركيه. اجلسي. ما يحدث أمر عادي. في الفيديو نفسه كثير من الأغاني.

جلست تنظر إليّ. لا بد أنها تفكر كيف كنا نحب هذه الأغنية معا. أنا ونادين وهي وطارق.

لكني وجدت نفسي مجذوبا إلى عينيها، حتى إنها أدركت ذلك، فقالت مبتسمة:

- خلينا في السياسة. في حامد وما جرى له.

اقتربت أقبلها بهدوء، وهي تركت لي شفتيها فرحت أرشف عسلهما، ثم رحت أضغط عليهما. أوقفتها أحتضنها، لا نبالي بنهاوند التي تنظر إلينا. حملتها إلى الغرفة ووضعتها بهدوء فوق السرير، ورحت أتقلب بها.

انتهينا. وقامت هي مذعورة:

- الباب مفتوح. الحمد لله نهاوند لم تدخل.

كنت أنا محمولا في الفضاء أشعر بخفة وزني، وقد صرت قابلا للطيران فوق الأرض. سبقتني هي لتستحم، بينما ظللت في مكاني. ما الذي أعاد اليوم كله إليّ الآن وأنا سابح في فضاء المتعة؟ سأنتهي بعدها من الاستحمام. سأتحدث معها وهي جواري على السرير. على غير العادة لا رغبة لي في الطعام، كما يحدث عادة بعد ما فعلنا. بالفعل ما إن خَرَجَت من الحمام وجاءت ترتدي جلبابا آخر وعلى رأسها وعنقها شعرها المبلول، حتى قلت لها: "احملي الطعام من فوق السفرة أو كلي وحدك". على غير العادة أشعر أني أكلت أجمل طعام العالمين. قبلتني وخرجت إلى الصالة تعيد الطعام إلى المطبخ ولم تأكل. استحممت أنا وعدت أرتدي البيجامة وأتمدد على السرير، وهي جواري نائمة بصدرها على صدري، ولم تجفف شعرها أو تمشطه، وتنظر في عينيّ وأنا أتكلم وأشعر بشعرها المبلول على صدري.

كانت الدهشة عظيمة على وجهها وأنا أحكي. لم أحكِ لها حكاية سائق التاكسي المسكين. حكيت لها كيف التقيت بامرأة الزاوية الحمرا. امرأة الزاوية الحمرا هي اللغز المستمر. كيف أخذتني إلى العمارة المهجورة والشقة التي بها صور الشباب الشهداء، وكيف

يخـرجون مـن الصـور ويمشـون كـالأطفال علـى الأرض، وكـيف تسـتعد لـيوم تأخـذهم إلـى مـيدان التحرير، وتطلقهم فـي ثـورة جديدة يتعرفون فيها على قاتليهم وينتقمون. كادت تضحك لكنها رأتنـي جـادا، فقـامت وجلسـت جـواري، وقـالت إن هـذه الحكايـة تستحق الجلوس. أخذت أحدثها عما لم أكتبه هنا. كيف كانت المـرأة تعـرف أسـماء الشـهداء. أجـل تحفـظ الأسـماء فـي كـل المحـافظات. وكـيف قـالت لـي قـد أخطـئ فـي عشـرة أو عشـرين لكنـهم أكثـر مـن ثمانمئة مـاتوا بطلقات ناريـة، وراحـت تقـول لـي أسماءهم وتطلب مني أن أصبر حتى تنتهي منها جميعا لأتأكد من صدقها. لكنها بعد أسماء كثيرة رأتني أنظر حولي وأنظر في ساعتي، فقالت: سأختصر وأقول لك كم ماتوا في كل محافظة من محافظاتك يا مصر. أكثر من ثمانمئة شهيد وألف وخمسمئة مصاب. في شبرا الخيمة عشرون شهيدا. في السيدة زينب خمسة شهداء. في بولاق الدكرور خمسة شهداء أيضا. في حدائق القبة ستة وعشرون شهيدا. في الإسكندرية ثمانية وتسعين شهيدا. في طنطا ستة عشر. في بني سويف تسعة عشر. في دمياط شهيدان والمنصورة أربعة والسويس ودمنهور تسعة وما بين واحد واثنين في أقسام مثل مدينة نصر والسلام والأميرية والوايلي وعشرة بالزاوية الحمرا وأكثر من عشرة بالتجمع الخامس...

كانت نجوان تنظر إلي بدهشة لا تفارق وجهها. لا تصدق أن المرأة تعرف هذه الأرقام وأني حفظتها. قلت لها لن أطيل عليكِ أنا الذي لم أتحمل أن أقرأ عدد الشهداء من قبل تحملت كثيرا مما تقوله المرأة. فهي أيضا كما تعرف أسماء الشهداء، تعرف أسماء القتلة والمتهمين الذين لم يُوقَّع عقاب على أي منهم، ورفضت أن تقول لي أكثر من اسم أو اثنين. قالت لي: "حتى لا تقول ذلك أمام أحد، فهم الآن أحرار طلقاء، فيتصيدوا لك ويحاكموك بتهمة ترويج الإشـاعات". وقـالت أيضـا: "لكـن تأكـد أن اللـه بالمرصـاد. لقد بدأ انتقام الله برحيل الأشجار. الأيام المقبلة سترى رحيل الأشجار عن كل هذه الأحياء وغيرها مما لم أقله لك، وعندما تعرف أن شـجرة طـارت فـي شـارع مـا أو بلـد مـا لم أذكره لك فاعرف أن جوارها قُتِل شهيد، فثمانمئة شهيد مـن الشباب الأولاد بينهم

خمس عشرة فتاة، غير ثلاثين مجهولين من النوعين، أمر لا يمر في الدنيا بسلام".

ولخصت لي كل شيء قائلة: "في القاهرة فقط أربعمئة والجيزة ستون والفيوم اثنان وخمسون وشمال سيناء سبعة عشر، والسويس ثمانية وعشرون والمنوفية وبني وسيف كل منهما اثنان وعشرون، وفي كل المحافظات وإن قلّ العدد".

لا أعرف كيف حفظت ذلك منها. لقد أحسست بحديثها مثل قصيدة أكتبها، أنا الذي كما قلت لم أتحمل إحصاء عدد الشهداء لنفسي من قبل. وقالت المرأة أيضا إن أكثر من ثلاثمئة منهم في سن الشباب بين العشرين والثلاثين، ومئة ما بين العاشرة والعشرين، كان المستقبل ينفتح أمامهم، وأكثر من مئة وخمسين كانوا رجالا بين الثلاثين والأربعين لا بد تركوا وراءهم أُسَرا. أكثر من ستمئة كان سبب وفاتهم طلق ناري من الأمام أو الخلف. طلقة وأحيانا طلقتان وثلاث وأربع. أكثر من خمسمئة منهم يوم جمعة الغضب في الثامن والعشرين من يناير، والباقي بعدها حتى رحيل الرئيس المخلوع. هذه الأعداد غير من قُتلوا بعد ذلك وحتى الآن!

وبينما كنت أحاول أن أتماسك حط الصمت علينا. نجوان لا بد الآن مثلي تتذكر الأحباء الذين ماتوا بين أيدينا أو أمام أعيننا.

كان صوت عبد الحليم حافظ لا يزال يأتي إلينا من الصالة يردد: "ستفتِّش عنها يا ولدي في كل مكان... وستسأل عنها موج البحر وفيروز الشطئان" كيف لم تنتهِ الأغنية بعد كل هذا الوقت؟ لا بد أنها انتهت وبدأت من جديد دون أن يفعل ذلك أحد. أشياء غريبة تحدث لكني وجدت نفسي آخذها في حضني. ثم بهدوء قلت لها، وعبد الحليم لا يزال يردد بيت الشعر نفسه:

- الأفضل أن ننهض ونغير الغناء. نحتاج إلى صمت كبير أو متابعة فيسبوك لعلنا ننسى يا حبيبتي. فيسبوك هو عالمنا الحقيقي الآن.

قالت:

- سأحضر التابلت الخاص بي، ونجلس هنا فوق السرير.

قلتُ ضاحكا:

- لقد نسينا نهاوند.

أسرعت خارجة وعادت حاملة نهاوند بين ذراعيها، وتبتسم قائلة.

- نامت على الأرض.

وضعتها على السرير الخاص بها الذي معنا في غرفة النوم. عادت تأتي بالتابلت الخاص بها. سنشغل أنفسنا الآن بالسياسة. قد يبعدنا الغضب عن الألم! لن أحضر اللاب توب الخاص بي. سأنظر في جهازها فأكون قريبا بصدري ووجهي وأنفاسي منها. نجوان هي روحي في الحياة الآن، ولن يبعدني عنها شيء. أنفاسها عطر أيامي وعيناها طريقي إلى الله. لكنها ما إن تمددت جواري حتى غيرت الموسيقى إلى أغنية روسية عن الفتاة كاتيوشا. رحنا نسمع معا في صمت. إنني أعرف هذه الأغنية جيدا. كانت نادين مغرمة بها رغم أنها لا تعرف الروسية. كانت تحكي لي كلماتها التي ما زلت أحفظ بعضها:

"أيتها الأغنية الساطعة عن الصبية العذراء

طيري إلى حدود الشمس

طيري مثل طائر إلى الجندي

من كاتيوشا أوصلي السلام

لعله يفكّر بالعذراء القروية

لعله يسمع أغنية كاتيوشا

وكما يحرس أرض الوطن العزيز

سوف تحرس كاتيوشا حبهما إلى الأبد"

انتهت الأغنية ونحن في صمت. تتالت بعدها موسيقى زوربا

اليوناني. كانت نجوان تبتسم وتهتز برفق وكنتُ أنا يغالبني النوم. سألتني:

- أليست كاتيوشا هذه سلاحا أو قاذفات صواريخ؟

أجبت:

- هي كذلك. لكنها في الأصل فتاة عذراء صغيرة. كاتيوشا بالروسية تصغير وتدليل لاسم كاترين. حبيبها كان قد ذهب إلى الحرب. كانت ترسل إليه الرسائل. كتب الأغنية شاعر روسي اسمه ميخائيل إيزاكوفيتش ولحنها ملحن اسمه ماتفي بلانتر.

ابتسمت، وقالت:

- إذن أنت أيضا تعرف في الموسيقى أكثر مني.

لم أشأ أخبرها أنها نادين هي التي قالت لي ذلك. قلت:

- ذاعت الأغنية في البلاد الروسية في أثناء الحرب العالمية الثانية. هناك يغنون للجنود والأحباء في الحرب وليس لرئيس الجمهورية.

ابتسمت، وقالت:

- طيب اسكت وبلاش تنكد عليّ.

سكتنا وشيئا فشيئا غلبني النوم لدقائق.

استيقظت ورأتني نجوان أنظر إليها، فابتسمت وقالت:

- هل تريد أن تخرج؟

- لا. أحتاج أن أبقى معك اليوم.

سكتت لحظات، وسألتني:

- لو طلبت منك أن تأخذني إلى المرأة العجيبة هل ستوافق؟

فكرت قليلا، وأجبت:

- الأمر يستدعي أن أعرف هل تحب هي أن ترى غيري أم لا.

سكتت، فقلتُ لها:

- أعدك أن أطلب منها ذلك إذا قابلتها مرة أخرى.

- وهل يمكن ألا تقابلها؟

- لا أعرف. لقد قبضوا على حامد شحاتة ومعه الأسد، وربما يحدث لها ذلك أيضا.

سكتنا. قلتُ لها:

- لا أعرف هل هي حقيقة أم خيال، كما لم أعد أعرف في أي البلاد أعيش.

- أنا أيضا أفكر مثلك. لكن الحقيقة أننا رأينا الخيال أمامنا حقيقة. علينا أن نصدق وننتظر النهاية.

- إذن سأجلس جوارك أقرأ.

- لقد استيقظت نهاوند بسرعة. سأجلس أرسم معها.

خرجنا جميعا من الغرفة. جلست نجوان ونهاوند في ركن من الصالة وأمامهما كتاب رسم للتلوين. راحت نهاوند تلون ونجوان تساعدها وتشرح لها الرسوم المختلفة. رحتُ أنا أقرأ في كتاب "تراتيل فرعونية قديمة".

كم مضى من الوقت؟ لا أدري. نحن دخلنا في الخريف لكن لا يزال النهار طويلا. فجأة حط صمت على المكان حولنا في الخارج. لم أعد أسمع صوت سيارة عابرة. تذكرت أنه اليوم تقريبا اختفت أكثر السيارات، واختفى أكثر الناس بسبب انطلاق الحيوانات في الطرقات.

قامت هي لتعد عشاء لنهاوند، ثم راحت تضحك وتشجعها كالعادة أن تأكل، ثم تحركت بها إلى سريرها. ستحكي لها حكاية وستنام نهاوند. لقد تجاوزنا الثامنة مساء.

عـادت نجـوان إلـيّ فـرحت أقـرأ لـها بعـض التراتيـل الفرعونيـة القديمة. أحدثها عن زيارتي إلى الأقصر، وكيف كادت عيني تدمع وسط معبد الأقصر وأنا أقف بين تراث الأجداد. حدثتها عن البر الغربي الذي لا أنساه رغم أني لم أزره في المرة الأخيرة. وعن معبـد حتحـور فـي دندرة الذي لم أره منذ عشـر سنوات، وكيف اشتقت إلى غرفة حتحور حيث تتمدد منحنية أسفل السقف فوق الأرض، تخرج من بطنها الشمس ومن قلبها القمر. حدثتها كيف أن حتحور هي إلهة الجمال والحب والسعادة والموسيقي والأمومة التي احتضنت حورس وربته، وربما من هنا جاء اسمها الذي يعني بيت حور. هي سيدة الفيروز الذي آمن المصريون ولا يزالون أن أحجاره تحمي أصحابها من الحسد. هل تعرفين أن سيناء كانت أيـام أجـدادنا الفراعنـة هـي أرض الفيـروز؟ سيناء الآن أرض الإرهاب. قلت لها لا بد أن نذهب إلى الأقصر في نهاية العام معا. سأشتري لك عُقدا من الفيروز. كيف لم أفعل ذلك حقا حتى الآن؟ لا معنى لأن أكون وحدي في فندق مثل وينتر بالاس حيث كان يـنزل الملـوك ومشـاهير الـدنيا. لا بـد أن تكـون معي فيه الملكة نجوان والأميرة نهاوند! ضحكث، وقالت:

- أحسست فجأة أنهم أفرجوا عن حامد من جديد.

نظرت إليها مندهشا قليلا. قلت:

- لا أظن أنهم سيفعلون هذا. لكن افتحي صفحتك على فيسبوك وانظري ماذا يحدث.

فتحت صفحتها على التابلت، وقالت:

- بوستات كثيرة جدا.

ثم هتفت:

- ما هذا الذي يحدث؟ هل سمعتك الأشجار وأنت تحكي لي؟

وراحت تقرأ وأنا أنظر معها.

- الناس في الإسكندرية خرجت من بيوتها وتقف كلها في

91%

الشوارع. الأشجار تطير واقفة من كل شوارع المدينة. الناس في ذعر أن تنطلق الحيوانات من حديقة النزهة"

"في طنطا نحن في الشوارع الآن. الأشجار تطير واقفة. ناس هرولوا إلى الطريق الزراعي، فرأوا السيارات كلها متوقفة وكل من فيها يقف ينظر إلى أعلى في دهشة ورعب. الأشجار تطير من على جانبي الطريق ومن بين الحقول"

"يا أهل القاهرة. في كل شوارع الجيزة طارت الأشجار وتطير. انزلوا مثلنا إلى الشوارع لتروا هذه المعجزة"

تبادلنا النظر في رعب حقيقي. بدا لي في عينيها سؤال أدرك أنه في عيني. هل يمكن أن ننزل إلى الشارع لنرى الأشجار تطير مرة أخري؟ ماذا يمكن أن يحدث هذه المرة؟ في المرة السابقة قبل أن تطير الأشجار حاول اللصوص خطف نهاوند، فهل يقتلنا أحد اليوم؟ أم لعلها تفكر مثلي أنه اليوم جاء موعد طيران البيوت من أماكنها.

سمعنا هرولة على السلالم خارج الباب وأصوات "استنى" و"انزل بسرعة البيوت كمان ستطير"

قلت لها:

- سأحمل نهاوند.

قالت:

- ضعها فوق عربتها، ربما نجد أنفسنا نجري في الطرقات.

غيرنا ملابسنا بسرعة. تركنا الشقة إلى شارع مصر والسودان فوجدنا الناس كلهم في الشارع، بملابس منزلية وبملابس خروج، يقفون في حيرة. بعضهم في رعب يمسكون بأيادي أطفالهم، وآخرون يشيرون إلى السماء حيث تتزاحم الأشجار القادمة من كل مكان في السماء وترتفع. كانت أضواء المصابيح على جانبي الشارع قد ازدادت بشكل رهيب وتتجه إلى أعلى لا إلى الأرض، فنرى صفحة السماء باهرة الضوء. وصرخت امرأة:

- إلى أين ستذهب هذه الأشجار؟

وصوت امرأة أخرى تبكي وهي تجيب:

- إلى الله، حيث يعيش الأطهار.

وتزداد بكاء، وهي تقول:

- يا رب كنا ننتظر رحمتك بيننا من زمان. ماتخليش على الأرض ظالم. بنتي مش قادرة أنساها. بنتي أخذتها من المشرحة مضروبة بالرصاص وخلوني أمضي على إقرار إنها موتة طبيعية.

كانت نساء كثيرات يتحلقن حولها، يحاولن تهدئتها، فيحتضنها ويربتن على ظهرها. إنهن يعرفن صدق قصتها، ويبكين معها ولا يتكلمن.

راودتني رغبة شديدة أن أترك الجميع، وأذهب حتى لو ماشيا إلى ميدان التحرير، رغم أني أشعر بتعب شديد مما فعلته اليوم كله. رأت نجوان هذه الرغبة في عيني وأدركَتها، فقالت لي:

- خذني معك.

همستُ:

- لكن كيف سنمشي بنهاوند كل هذه المسافة والدنيا ليل؟ قد تترك الدولة اللصوص وقطاع الطرق في الطرقات الآن.

ارتفعت في الفضاء أصوات الأذان من كل المساجد القريبة والبعيدة فملأت الفضاء، وأنا أفكر أن لا بد أن ذلك حدث في مصر كلها، وارتفعت أصوات أجراس كنيسة دير الملاك ووصلت إلينا. وجدت نفسي غير قادر على منع دموعي. قلت لنجوان:

- لا تتركي الشارع إلا إذا انصرف الناس جميعا. اتركيني أذهب إلى ميدان التحرير مرة ثانية. امرأة الزاوية الحمرا تناديني الآن يا نجوان. آن الأوان لأعرف سرَّها!

بكت نجوان وارتمت في حضني، وهي تقول:

- أشعر أنك لست نور الذي أعرفه. لقد مسَّك السحر يا نور. كيف تقول ذلك وكنت معها؟

- سأعود إليكِ يا حبيبتي لا تقلقي. أشعر أن لا شيء في الدنيا سيأخذني منك.

لم نكن نحن فقط من نحضن بعضنا ونحن نتكلم. كان الرجال والنساء جميعا تقريبا في أحضان بعضهم، وكذلك الأطفال في أحضان أهلهم أو أمام أرجلهم وتحت أيديهم .

ووجدت نفسي أمشي وأبتعد . لحظات ووجدت نفسي أجري لا أشعر بشيء حولي في هذا العالم.

كيف وصلت إلى ميدان التحرير. لا أعرف. ضاع ما كنت أشعر به من تعب رغم طول الطريق. كانت في الجو نسمة طرية جميلة تعلن عن الخريف. لم أشعر بعرق على جسدي. رأيت الميدان كله خاليا من الأشجار وأعمدة الإنارة. رأيت كل نوافذ العمارات مفتوحة ولا أحد يطل من خلفها. أين ذهب السكان؟ ظلام فوق ظلام. لا نور من أي نافذة. وسط الميدان رأيتها تجلس مكان العَلَم الذي لم يعد موجودا، لا هو ولا الصاري الذي يحمله. لا بد أنه طار. حولها ضوء لا أعرف مصدره. إنها تجلس على حافة الدائرة التي تحيط بالعلم. هنا كانت الكعكة الحجرية. لحظات وسمعت صوتا ينشد من بعيد:

"دقت الساعة المتعبة"

"دقت الساعة المُتعَبة"

.....

.....

.....

"عندما تهبطين على ساحة القوم

لا تبدئي بالسلام

هم الآن يقتسمون صغارك فوق صحاف الطعام

بعد أن أشعلوا النار في العش

والقش

والسنبلة"

"اذكريني فقد لوثتني العناوين في الصحف الخائنة"

لم أرَ أمل دنقل في حياتي، لكني أعرف أشعاره. من الذي لا يعرف "أغنية الكعكة الحجرية"؟ كان الطلاب والعمال هنا في عام 1972 قبل أن أولد أنا يطالبون السادات بالديمقراطية وبتحرير الأرض. وكان الشعراء بينهم أو قريبين منهم في مقاهي وسط البلد.

لكن لماذا هذه القصيدة الآن تملأ الفضاء بينما الأشجار قد غادرت البلاد؟ لم أنتظر أن تنتهي القصيدة. تقدمتُ إليها أكثر، سيدة الزاوية الحمرا، التي تجلس والأسد جوارها تمسك بلبدته تكاد تحتضنه.

- أنتَ من جديد؟

تساءلت ضاحكة وهي تهز ساقيها. أجبتها:

- أجل. أتيت لأراكِ.

- هل رأيت الأشجار ترحل عن البلاد؟

- طبعا. ويشملني خوف كبير أن ترحل المدن.

- لا تخف. المدن لن ترحل. لا خراب أكثر من رحيل الأشجار. هيا معي.

ومشت والأسد جوارها وأنا في ذهول. كيف عاش الأسد العجوز كل هذا الوقت بلا طعام؟ كيف حقا صارا إلفَين؟ كيف حقا لا ينتبه لي أنا الذي أرتعد من وجوده؟

لكني مشيت خلفها. كنت أعرف أنها ستدخل شارع محمد محمود. ستذهب إلى العمارة التي بها صور الشهداء. عمارتها وحدها الآن. لم أشاهد سيارة بوليس واحدة. لا أحد في الطرقات.

دخلنا العمارة وأنا شارد عن الدنيا، والأسد يمشي أمامنا دون أن تمسك بلبدته. بدا لي قد ألف المكان والطريق. لا أعرف هل أنا الذي كنت أمشي معها حقا، حتى جلست أمامها بيننا المنضدة

التي عليها صور الشهداء الفوتوغرافية. قالت:

- هذا هو الموعد. سأطلقهم جميعا الآن.

قلت:

- كم من الوقت تحتاجين لترسميهم حتى يتحركوا.

ابتسمت، وقالت:

- لقد أنعم الله عليّ أخيرا بما تمنيته. سأناديهم، وما إن أذكر أسماءهم حتى يتحركوا.

ثم نظرت لي نظرة عميقة، وقالت:

- التزم الصمت. قد ترى من بينهم أصحابا وأحبابا. لا تحدثهم. هم لم يعودوا يعرفون لغتنا.

شملتني الدهشة والحيرة، لكني كدت أسألها هل سأرى نادين، وإذا بها تقول:

- سترى نادين. حُبك الأول. لن تفهم أي أحاديث لك أيضا.

صار نظري إليها عميقا، فسبقتني من جديد إلى الحديث:

- أعرف عنك كل شيء وإلا ما كنت ظهرت لك ولا أعطيتك من عسلي.

تجمدت في مكاني أزم شفتي، وأسأل نفسي هل أنا في هذه الدنيا حقا؟ يا الله أعنّي على الصبر. كيف سأرى نادين ولا أحدثها؟ شعرت بدمعي يترقرق بينما هي ابتسمت، وراحت تمسك بصور الشهداء تنادي أسماءهم، فيخرجون من الصورة أطفالا ينطلقون في الجري إلى الباب، فيصيرون شبابا كبارا ويتركون الغرفة ضاحكين في ملابس زاهية الألوان. كنت أعرف أني لن أستطيع الصمود. صرت أرتعش والأسد ينظر إلى يكاد يضحك. وحين نادت اسم نادين، خرجت نادين من الصورة طفلة رائعة الجمال. وقفتُ أنا في ذهول لكن نادين صارت شابة انتشر

عطرها في فضاء الشقة فصرختُ "نادين" لكنها كانت قد خرجت ولم أستطع البقاء. اندفعت وراءها جاريا أنادي "نادين" ولا تتوقف هي. رأيت شارع محمد محمود وقد امتلأ بشباب يرسمون على جدرانه. لمحت من بينهم نادين فجريت إليها أحدثها، لكن عربة شرطة ظهرت مندفعة في الشارع ناحيتي وتوقفت. من نافذتها سألني الضابط الذي يجلس جوار السائق:

- لماذا تقف هنا وسط الظلام؟ لا أحد في الشوارع وكل البيوت والمحلات والمقاهي مغلقة.

وقفت غير قادر على الرد. النور على جدار الجامعة الأمريكية لا يعرف أحد مصدره. لا بد أنها أنوار الشهداء. قال:

- تحرك بعيدا عن هنا لأنه قد تكون هناك حيوانات مفترسة أخرى تظهر فجأة. انجُ بنفسك.

كنت أنا أفكر كيف حقا لا يرى هو الشهداء يرسمون وجوههم ويكتبون شعاراتهم؟ كيف انقلب الحال ؟

اندفعت سيارة الشرطة من أمامي، فتقدمت ناحية نادين حتى وصلتُ إليها. همستُ لها:

- نادين.

ظلت مبتسمة ترسم صورة لوجه جيفارا ولا ترد عليّ. أغمضت عينيّ غير قادر على الاقتناع بما رأيت، ومشيت بعيدا فرأيت امرأة الزاوية الحمرا تنزل من العمارة ومعها الأسد. كانت تنظر لي وتضحك. كان في الشارع غير من توقفوا يرسمون على جدار الجامعة الأمريكية، شباب وبنات كثيرون يجرون مبتعدين. أشارت إليهم، وقالت:

- يذهبون إلى بلادهم. سيدخلون بيوت القتلة الذين سيرونهم ولن يستطيعوا قتلهم. سيصيب القتلة جميعا الجنون، ويجرون في الطرقات وخلفهم طوابير من الشهداء تضحك.

ونظرت إلي نظرة عميقة، ثم قالت:

- هذا الأسد سأطلقه في الطرقات، ولن يستطيع أحد قتله، وهو لن يقتل أحدا. سيكون مصدرا للرعب ولن يستطيع أحد صيده. لا يصبك الرعب إذا رأيته. انتبه يا نور. لن تراني بعد اليوم.

واختفت من أمامي، ولم أعد أرى إلا الأسد وقد صار بعيدا يمشي وحيدا يزأر وأسمع صوت زئيره.

عدت أنظر إلى الشباب والفتيات الواقفين يرسمون أمام جدار الجامعة الأمريكية. كدت أتحرك إليهم عائدا إلى نادين لكن شملني اليأس. أغمضت عيني على الدمع ومشيت إلى شارع التحرير، ومنه إلى شارع الألفي، ثم شارع يوسف الجندي. رأيت ثلاثة شبان وفتاة يرسمون على جدار بطريركية الأرمن الكاثوليك. هل أحدثهم؟ اقتربت منهم فلم ينتبهوا إليّ وظلوا باسمين يرسمون. يا الله. بينهم محب. المسكين الذي لم يفز بحب نادين والذي تصورت أنه هو الذي رسمها من قبل على جدار الكنيسة. الذي مات في أحداث محمد محمود الثانية فقلت لحق بنادين قبلي . لقد عاد معها الآن. لكنه يرسم وجه فتاة أخرى لا أعرفها ولا أذكرها. هل أحدثه. لن يحدثني. نادين لم تحدثني! ورأيته ينظر إليّ ويبتسم. مشيت ودخلت إلى شارع صبري أبو علم فوجدت شابين وفتاة يرسمون أيضا على جدار البطريركية الأمامي. كل شيء حولي مغلق. وجاءت عربة شرطة في الشارع من خلفي ثم توقفت. رأيت فيها الضابط السابق نفسه فقال لي:

- أنت أيضا؟ أنت مجنون.

وانطلق بسيارته.

انهرت جالسا على الرصيف. دق الموبايل في اللحظة نفسها. هي نجوان. ماذا أقول لها؟ وهل ستصدقني؟ قلت بصوت حائر.

- آلو حبيبتي طمئنيني عليكِ.

كانت تبكي ورأيت دموعها أمامي. قالت.

- ادخل على فيسبوك يا نور. أنا رجعت البيت وفتحته لقيت الدنيا

كلها تتكلم على الشهداء. الشهداء رجعوا يا نور للحياة في كل البلاد، واقفين يرسموا على جدران البيوت. كل الناس بتقول إنهم عارفينهم. أنا رأيت نادين يا نور ورأيت طارق أيضا في الصور.

انقطع الاتصال بيننا فجأة فلم أرد عليها. حاولت بدوري الاتصال بها لكن لا أمل. الهاتف مغلق أو غير متاح. لا خوف على نجوان الآن فهي في البيت، ولا خوف حقا على الشهداء. الذين يرونهم هم أحبابهم فقط ولا بد أنهم هم من يصورونهم. البوليس الآن لا يرى شيئا. لا يري رسوم الجرافيتي ولا من يرسمون. فلأظل أمشي في الشوارع المظلمة التي طارت أشجارها وأعمدة إنارتها، أتطلع إلى الشهداء الذين ينبعث النور منهم ويرسمون أيقوناتهم. من يدري؟ قد يكلمني أحدهم أو يفهم حديثي. ساعتها سأجري إلى نادين وسيكون طريق الروح قد عاد بيننا. هل حقا يمكن أن يحدث ؟ كم أتمني أن تعرفني وتعرف أني عشت لأنها قالت لي أن أعيش .

ومشيت. لكنهم أبدا لم يتحدثوا معي. يبتسمون ويضحكون فقط. ورأيت من بينهم طارق الذي ابتسم لي ولم يتكلم. من يخرجني من هذه الحيرة وهذا العذاب الآن؟ لا بد أن أعود إلى بيتي قبل أن أنسى أني كنت أعيش يوما في هذه البلاد.

انتهت

2017

للمؤلف

:اولا: الروايات

سبع عشرة رواية منها :

1-في الصيف السابع والستين

2- ليلة العشق والدم

3-المسافات- ترجمت الي الانجليزية -جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة وقسم النشر بالجامعة الامريكية بالقاهرة عام 2008

4- الصياد واليمام - حولت الي فيلم سينمائي بطولة أشرف عبد الباقي .

5- بيت الياسمين - ترجمت الي الفرنسية عام 2000 والي الايطالية عام 2008

6- البلدة الاخري -ترجمت الي الانجليزية والفرنسية والالمانية

7- قناديل البحر .

حولت الي مسلسل تليفزيوني بطولة آثار الحكيم ومحمود قابيل

8-لا احد ينام في الاسكندرية - حولت الي مسلسل تليفزيوني بطولة ماجد المصري وسهير المرشدي

ترجمت الي الفرنسية والانجليزية والأسبانية

9- طيور العنبر .

ترجمت الي الانجليزية

10- الاسكندرية في غيمة .

"الثلاث روايات يكونون ثلاثية الاسكندرية"

1 دقيقة متبقية من «قبل أن أنسى أني كنت هنا»
98%

11- عتبات البهجة .

ترجمت الي الفرنسية واليونانية.

12- شهد القلعة .

13- برج العذراء.

14- في كل اسبوع يوم جمعة . ترجمت إلي الألمانية .

15- هنا القاهرة .

16- آداجيو. ترجمت الي الفرنسية والانجليزية .

17- قطط العام الفائت .

ثانيا :المجموعات القصصية: خمس مجموعات نفدت وطبعت في دار الشروق في مجلد واحد بعنوان "أشجار السراب"

كتب متنوعة :

- أين تذهب طيور المحيط – ادب رحلات

- 24 ساعة قبل الحرب – مسرحية

- السبت فات والحد فات – مقالات .

- من الذي يصنع الازمات في مصر – مقالات .

- ايام التحرير .

- ماوراء الخراب " مسالة الدين – الهوية – النهضة – الآخر – التراث "

- مذكرات عبد اميركي – تاليف فريديرك دوجلاس . ترجمة عن الإنجليزية .

الجوائز :

- ماوراء الكتابة – تجربتي في الإبداع .

- الجائزة الاولي على الجمهورية لنادي القصة بالاسكندرية عام 1969

- جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الامريكية عام 1996

- جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2004

- جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2007

- جائزة ساويرس في االرواية لكبار الكتاب عن رواية " في كل سبوع يوم جمعة " عام 2009

- جائزة كتارا عن رواية " آداجيو " عام 2015

- جائزة الشيخ زايد في الآداب عن كتاب " ماوراء الكتابة – تجربتي في الابداع –" عام 2016